مركز الدراسات والبحوث اليمني

صنعاء ج.ع.ي

في العربيّة السعيدة

دراسات تاريخيّة قصيرة

دكتور محمد عبد القادر بافقيه

مركز الدراسات والبحوث اليمني
صنعاء ج.ع.ي

في العربية السعيدة

دراسات تاريخية قصيرة

دكتور محمد عبد القادر بافقيه

تصميم الغلاف والخطوط
جمال بوستان

بسم الله الرحمن الرحيم

وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا
فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا
فيها ليالي وأياما آمنين ۝ فقالوا ربنا
باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم
أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك
لآيات لكل صبار شكور

صدق الله العظيم

سورة سبأ: الآيتان ١٨ و ١٩

إهداء

إلى أم شيخ

إعزازاً لها.. واعتزازاً بها

محمد

في العربية السعيدة

دراسات تاريخية قصيرة

يلقي المؤرخ اليمني المعروف الدكتور محمد عبد القادر بافقيه الأضواء على بعض الزوايا المعتمة في تاريخنا القديم .. ويتعرض لجوانب الغموض التي تكتنف الكثير من الموضوعات والأسماء والأحداث التاريخية في العربية السعيدة .

ومن خلال استقراء النقوش والروايات الإخبارية يقدم الدكتور بافقيه في المقالات التي يتضمنها هذا الكتاب وجهة نظر علمية تعبر عن تصور شامل للمعطيات التي شكلت ـ أو أثرت في ـ أحداث تلك الفترة من تاريخ اليمن ، مرتبطة بأوضاع المناطق المجاورة لاسيا في شمال الجزيرة العربية والحبشة .

مركز الدراسات والبحوث اليمني

المقدمة

اختيرت المقالات الثمان ، التي يعاد نشر بعضها وينشر بعضها الآخر لأول مرة في هذا الكتاب ، من بين دراسات قصيرة تمت على مدى سبع سنوات (١٩٧٨ - ١٩٨٥) ، ولذلك فهي تنطوي أحياناً على شيء من التكرار بفعل مقتضيات النشر في مظان متفرقة في أوقات مختلفة ونتيجة الحاجة الى ان تكون كل مقالة وحدة مستقلة بذاتها قدر الإمكان .

والمقالات القديمة منها فيما عدا «الهمداني والمثامنة» (١) رتبت هنا حسب ظهورها من قبل ولكن تخللتها ثلاث مقالات جديدة هي «اللقب الملكي الحميري» وفيها مراجعة لدراسة سابقة منشورة (٢) ، وبنو جرة وبنو ذرانح» وفيها يعبر الكاتب بطريقة غير مباشرة ، عن رأيه في أحدث نص نقشي يتم اكتشافه (٣) ويحاول ان يضع معطيات ذلك النص وتداعياته في إطار التسلسل الزمني الجديد الذي يقترحه لفترة ملوك سبأ وذي ريدان (٤) والحنفاء العرب : مشروع إطار تاريخي (٥) .

إن هذه المقالات التي تعكس متفرقة وجهة نظر الكاتب في بعض مسائل التاريخ العربي القديم والتراث ، كما تبدت له وقت الكتابة ، لتعبر مجتمعة عن تصور لن يفوت القارىء تبينه فهو الذي فرض اختيار «في العربية السعيدة» عنواناً شاملاً للمجموعة .

م . ع . ب

عدن في ٢٩ رجب ١٤٠٥ و ١٩ ابريل ١٩٨٥

هوامش المقدمة

(١) ورقة قدمت في ندوة الهمداني بجامعة صنعاء ، اكتوبر ١٩٨١

(٢) «يمنت الحلقة المفقودة في سلسلة اللقب الملكي الحميري» مقالة ضمن مقالات لعدد من الكتاب نشرت في كتاب بعنوان «الهدهد» أهدي إلى عالمة النقوش النمساوية ماريا هوفنر ، جرانز ١٩٨٠ .

(٣) مطهر الارياني : نقش بيت ضبعـان اليمن الجديد ٣ نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٤

(٤) انظر :

BAFAQIH , Le Yemen à la periode des rois de Sabà et de du Raydàn, thèse de doctorat d'etat es letters and sciences Humaines (histoire), Universite de Paris, Sorbonne- paris IV 1983

ب ـ بافقيه «موجز تاريخ اليمن قبل الإسلام» وهو الفصل الأول من كتاب «مختارات من النقوش اليمنية القديمة» اشترك في تأليفه عدد من المشتغلين في التاريخ والنقوش (تحت الطبع) .

(٥) نُشِرَت في صحيفة الشرق الأوسط على قسمين الأول ١/١٠/٨٥ والثاني في عدد يوم ٤/١٠/٨٥ .

١
عرب الشمال وعرب الجنوب

من القضايا التي يتعرض لها دارسو التاريخ اليمني (والعربي عامة) في العصور القديمة ، العلاقة بين عرب الشمال (الذين يوسمون بالعدنانيين ؟) وعرب الجنوب (الذين يعرفون بالقحطانيين ؟) وهي علاقة لم تدرس بعد بالعمق الكافي .. ولم يقدم التحليل المقنع لها ..

ولا أدعي حين أتعرض لها في هذا الحديث انني حققت مالم يحققه غيري .. كل مافي الأمر انني (حين طلب مني أن أتحدث إليكم) اخترت لكم هذا الموضوع لنفكر معاً في هذه القضية التي أعتقد أنها تمس صلب التاريخ اليمني خاصة والعربي عامة .

القضية :

يرجع الغموض الذي يكتنف هذه العلاقة إلى أنه فيما يتعلق بالفترة حتى نهاية الألف الأول قبل الميلاد (ويعد ما يقرب من عشرة

قرون تزيد أو تنقص من اتصال أهل الجنوب بالدول المتعاقبة على الشام مجتازين بالضرورة أراضي واسعة من شبه الجزيرة نفسها) لا نملك نصوصاً صريحة وواضحة عن العلاقة بين اليمنيين وسكان هذه الأراضي التي تمر بها القوافل ذهاباً وإياباً .

هذا ، بينما نجد النقوش السبئية ثم الحميرية منذ بداية هذا العصر ، أي منذ القرن الأول الميلادي تقريباً ، وإلى ما بعد الحملة الحبشية في القرن السادس ، تتحدث عن اتصال ، أو قل عن احتكاك مستمر متنام بين عرب الجنوب وعرب الشمال .

وقد أدى الظهور المفاجىء لمن أسمتهم النقوش عربن (= العرب) واعربن (= الأعراب) ، إلى ظهور نظريات تعلل تلك الظاهرة في النقوش[١] وتتلخص في :

ان القبائل الشمالية وقد دأبت على التسلل إلى الأراضي الخصبة عبر قرون طويلة ، أخذت في بداية عصر ما بعد الميلاد بالذات تحت وطأة فترة من الجفاف الشديد ، صادفت في نفس الوقت ضعفاً في سبأ وصراعاً داخلياً في اليمن تندفع بأعداد كبيرة (؟) وبإصرار مهاجمة أطراف اليمن الخضراء . . حتى انتهى بها الأمر آخر المطاف. إلى الاستقرار في أنحاء مختلفة من البلاد والتأثير على الحضارة اليمنية لغوياً وثقافياً وروحياً واجتماعياً واقتصادياً كما تأثر أولئك الغزاة (؟) أنفسهم ببعض جوانب الحياة اليمنية .

وهذا التعليل وان كان يقوم على أسس بعضها صحيح مثل : ضعف مملكة سبأ والحروب الداخلية خاصة بين سبأ نفسها وجيرانها المحيطين بها إحاطة السوار بالمعصم (حمير . حضرموت . أعراب وممالك بدوية(؟ .) . . واحباش طارئون) ـ هذا التعليل في حاجة الى تعميق وتوضيح وربما إلى تصحيح . . وهو امر ممكن حتى في مستوى معارفنا الراهنة . .

في البداية :

ولكن لنبدأ أولاً من البداية :

هل هناك أساس حقيقي لتقسيم العرب الى شماليين وجنوبيين ؟ وإذا صح ذلك فأين نضع الخط الفاصل بين الفريقين ؟

ـ وهل الجنوب هو منطقة الحضارة اليمنية التي قامت مراكزها الرئيسية الأولى حول رملة السبعتين (مفازة صيهد) أم هي أوسع من ذلك ؟

ـ وهل ما عدا تلك الرقعة (ضاقت أو اتسعت) في هذه الجزيرة شبه القارة التي تفوق شبه القارة الهندية مساحة ـ هل كان ما عدا تلك الرقعة مناطق بدوية لم تعرف نعمة الاستقرار ؟

لنتأمل خارطة هذه الشبه جزيرة . . . فماذا عسانا واجدين ؟

أ) لاشك ان الأراضي الجرداء هي الطاغية .. ولكن ينبغي أن نفرق بين الأراضي الجرداء والرملية في آن واحد وغيرها من الأراضي الجرداء غير الرملية ، فالصحارى الرملية التي تشكل عائقاً حقيقياً دون الاتصال المكثف بين السكان المقيمين على جانبيها وفي مقدمتها صحراء الربع الخالي هي غير المفازات الرملية الأخرى التي يمكن اجتيازها باستخدام الجمال ، حتى صحراء النفوذ الكبرى (ثاني أكبر صحراوين في شبه الجزيرة) فإنا نجد حولها مركزين أساسيين :

دومة الجندل .. وتيماء .. والأخيرة اتخذها الملك البابلي نبونيد مقراً له طيلة العشر سنوات الأخيرة من حكمه .. وكان الطعام والمؤن الأخرى تحمل اليه فيها من بابل عبر تلك الصحراء[٢] .

ب) وهذا يجرنا الى التأمل في العمق الذي بلغه تأثير الحضارات المتعاقبة في الشام والعراق على الأراضي المجاورة في شبه الجزيرة شاملة أعالي الحجاز (ربما إلى يثرب) .. وأطراف نجد الشرقية ...

ج) ثم هناك سواحل الخليج العربي كلها .. وهي منطقة عرفت أجزاء منها الخصب نتيجة للانحدار التدريجي لهضبة نجد نحوها . .والتي تنتهي إليها نتيجة لذلك الانحدار أودية كبيرة هامة تتسبب في ترسب مياه جوفية قريبة التناول عرفت من اجلها تلك

المنطقة باسم (الاحساء والبحرين . .) وقامت فيها مدن وثغور ومجتمعات تجارية بل وممالك سكّت نقوداً وصلت إلينا نماذجها .

د) وهناك بعد ذلك الجزء الشرقي من عمان والمنحدر من الجبل الأخضر نحو الباطنة الشهيرة حتى يومنا هذا بكثافة نخيلها . . . وهذه المنطقة كباقي أنحاء الخليج ظلت عبر التاريخ على اتصال من خلال الثغور بما يدور على الجانب الآخر من الخليج ، بل ومتصلة بالشرق الأقصى مباشرة . . وأكثر من ذلك فان اتصالها باليمن كان في الغالب عن طريق البحر (البيربلوس)[٣] .

وهكذا نرى أنّ مناطق الاستقطاب لسكان أواسط الجزيرة كانت كثيرة وفي كل اتجاه . . ومعها تعددت وتنوعت المؤثرات ، ولعلنا نجد في هذه الحقيقة التفسير الممكن لتوزيع القبائل (العدنانية ، والقحطانية أيضا !) عندما جاء الاسلام . فإذا أخذنا بالرأي القائل بأن مضر وربيعة يعودان الى أرومة واحدة (نزار !) كانت تقيم في الحجاز والتهائم فسنجد أنها توزعت إلى :
مضر : التي بقيت في الحجاز .

وربيعة : التي اتجهت إلى نجد .

وانه لما انقسمت مضر الى قيس علان وخندف فإن :
خندف : بقيت في الحجاز
وقيس علان : مالت الى نجد

وأخيرا بانقسام خندف إلى طابخة ومدركة فان :
مدركة : انتشرت في تهامة وما حولها
وطابخة : ذهبت كسابقاتها الى نجد .

ولكن هذه التفريعات والتحركات لا تذهب بعيداً في التاريخ ولابد انها جاءت متأخرة نسبياً . . وإنما أوردناها لتصوير ما ذهبنا إليه من تعدد مراكز الاستقطاب . . ولا أظننا نذهب بعيداً إذا أدخلنا هجرة الغساسنة ضمن هذا الإطار .

ولنعد الى اليمن ، يمن الممالك القديمة ، ونقطة الخصب الرئيسية في شبه الجزيرة ومركز الثقل السكاني فيها حتى يومنا هذا ، ولنتذكر ان اليمنيين اعتمدوا في بناء حياتهم المستقرة والمتحضرة على أساسين (كما هو معروف) :

أ) الزراعة في مرتفعاتهم الممطرة . . وأوديتهم التي تتلقف السيول القادمة من المرتفعات حيث أقاموا الحواجز والسدود .

ب) الموقع الممتاز لبلادهم نتيجة للشواطىء الممتدة على البحرين الأحمر والعربي حيث قامت الموانىء التاريخية وقربهم ـ في نفس الوقت ـ من منطقة غنية ومتخلفة (نسبياً) . . تلك هي افريقيا الشرقية .

ولكن لا الزراعة . . ولا العلاقات اليمنية الافريقية كانت كافية لتطور تلك الحضارة بل كان لابد للحضارة اليمنية من الاتصال

بالمراكز الحضارية الكبرى التي سبقتها الى الوجود خاصة في حوض الأبيض المتوسط وبلاد ما بين النهرين لتحقيق ذاتها من خلال التفاعل الخلاق مع ما كان يعتمل في تلك الأرضين من تطورات سياسية واقتصادية تمخضت عنها نظم اجتماعية وآراء ومعتقدات وفلسفات وفنون الخ . وكان المدخل الى ذلك الاتصال هو التجارة لتسويق المنتجات اليمنية وفي مقدمتها البخور والمر والسلع الشرقية والأفريقية التي كانت تمر عبر الموانىء اليمنية .

هنالك واجهت الحضارة اليمنية التحدي الذي قاد خطاها ورسم لها دورها المحلي والعالمي ، القومي فالإنساني . . فقد كان على اليمنيين من أجل الاتصال بأفريقيا والشرق أن يتعاملوا مع البحر . . كما كان عليهم من أجل الاتصال بمراكز الحضارة في الشمال أن يخترقوا قلب الجزيرة في اتجاهين :

أ) على طول الساحل الغربي (السراة والحجاز)

ب) وعلى عرض وسط الجزيرة في خط مائل من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي بدءاً بوادي الدواسر جنوب غرب نجد وشمال شرق نجران(٨) .

وهنا ك رأي له وجاهته . . يقول بأن قبائل شمالية (الثموديين) هي التي قادت القوافل الأولى بين اليمن والشام وانهم ارتادوا الأسواق اليمنية حيث كانت تعرض السلع المحلية والأجنبية .

ومع قلة معارفنا عن هذا الشعب (ثمود) الذي خلد القرآن الكريم ذكراه ، فانه يكفي أن نعلم أنهم سكان أعالي الحجاز القريبون من مراكز التحضر في الشام وأسواقها .

ولنا أن نعتبر (مؤقتاً) ان هذا هو أقدم احتكاك معروف بين عرب الشمال وعرب الجنوب .

ولننبه الى اننا نستخدم اصطلاح «عرب» هنا كما استخدمه الكتاب الكلاسيكيون منذ عهد هيرودوت .

ولقد نُسِب الى الثموديين خط عرف بالثمودي . لاتزال شواهده منتشرة في أنحاء الجزيرة من أعالي الحجاز إلى أقاصي اليمن (؟) وكان يظن أنه خط أرباب القوافل ولكن الاكتشافات الأخيرة دلت على أمرين محيرين :

أ) ان المخربشات المسماة ثمودية وجدت في الجنوب بمقدار يفوق ما وجد منها في الشمال .

ب) انها توجد بوفرة خارج طرق القوافل .

ما علينا . . فهذه ملاحظة عابرة . . وقد كان لابد من إثارتها لنتذكر ان الأحكام القاطعة لم يحن وقتها بعد .

ثم ما لبث اليمنيون أن تولوا بأنفسهم تحريك القوافل ولعل المعينيين قد لعبوا في هذا المجال دوراً متميزاً . . وهو أمر قوي الاحتمال من عدة وجوه . . ويعيننا في نفس الوقت على القاء بعض

الضوء على لغز الدولة المعينية ـ فمن وجوه هذا الاحتمال :ـ

أ) ان معين قد قامت في طرف الجوف المطل على الرمال (في فترة إزدهار حركة القوافل) لتكمل حلقة الحواضر (العواصم) المحيطة بمفازة صيهد (رملة السبعتين) . . على أطراف الربع الخالي الغربية . . وفي موقع متميز على الطريق نحو الشمال .

ب) انها (أي معين) كانت دولة ـ مدينة أو (مدينة/دولة) مثلت في بعض أدوارها تحالفاً بين مدينتي قرناء المعينية وجارتها يثل .

ج) ان الجاليات المعينية انتشرت داخل اليمن في سبأ وقتبان بالذات (وكانت لها علاقة خاصة بحضرموت) كما انتشرت في أعالي الحجاز (ددان) وربما في (يثرب) أيضاً . . بل وفي خارج الجزيرة العربية .

د) ان معين اختفت حين بدأت منافسة الطرق البحرية لطريق القوافل . . وبقيت (حليفتها) يثل فترة . الأمر الذي يذكي الاعتقاد بأن قيامها وزوالها كانا رهناً بمصاير التجارة البرية . على أن قيام القوافل اليمنية لا يعني بالضرورة توقف ورود القوافل الشمالية الى اليمن . والمهم على أي حال ـ ان الاحتكاك الذي بدأ مع أول قافلة ربطت الشام باليمن قد ازدادت وتيرته وتكاثفت تراكماته عبر القرون . . ولابد ان المحطات (التي يحدثنا عنها بلييني) على طول طريق البخور قد اجتذبت اليها سكان الأرضين التي تمر بها من الجانبين كما فعلت كل طريق تجارية ذات بال في كل زمان ومكان .

وليس لنا (فيما يتعلق بالمراحل المبكرة) أن نبحث عن أسماء تلك الشعوب/ القبائل ، فلم يتخلف لنا منها شيء يذكر وما سجلته منها الكتب الكلاسيكية في الفترة المتأخرة لما قبل الميلاد لم يتيسر تحقيقه . . وربما لأن التفرعات التي تحدث في المجتمعات العشائرية والتي تتغير فيها الأسماء وفقاً لما ينشأ فيها من بطون جديدة ، يؤدي إلى نسيان الأصول القديمة(٥) . ان الدلائل كلها تشير إلى حداثة نسبية لنشوء علم الانساب حتى لدى عرب الشمال . لذا يكفي ان نقول أنهم عرب الشمال أسلاف النزاريين الذين ظهروا في الفترة اللاحقة ، مما يثبت صحة الأسس التي بنيت عليها الأنساب وإنْ داخلها الكثير من التخليط الى غير ذلك من عيوب علم الأنساب كما لاحظ الهمداني وغيره .

ثم تاتي فترة يكون فيها الانباط الذين امتدت مملكتهم الى أعالي الحجاز والذين تركوا أثراً باقياً انعكس في الشعر الجاهلي . . والذين يرى البعض أنهم ربما كانوا أسلاف بعض القبائل العربية الشمالية(٦) .

هؤلاء الأنباط الذين حالفوا الرومان والذين ساعدوا الاخيرين في غزوتهم الفاشلة لليمن لدى قرب نهاية عصر ما قبل الميلاد شكلوا ولاشك ـ مرحلة في العلاقات بين عرب الجنوب وعرب الشمال .

ولاشك أن تلك الغزوة الفاشلة ، التي ضمت بين صفوفها بضع مئات من أبناء مملكة يهودا ، قد كانت مظهراً عنيفاً من مظاهر

احتكاك اليمنيين بعرب الشمال . الى جانب ما مثلته من أطماع الدول الكبرى في ذلك العصر وتحريضها لأهل الجزيرة لضربهم بعضاً ببعض .

منطقة تداخل

وقبل أن ننتقل إلى المرحلة الأخيرة في العلاقات بين عرب الجانبين وهي المرحلة الحسنة التوثيق والشاملة للقرون الأولى للميلاد ـ قبل ذلك علينا أن نقف لحظة نحاول الإجابة على سؤال طرحناه في مطلع هذا الحديث :

ـ هل هناك أساس لتقسيم العرب إلى شماليين وجنوبيين ؟ وأين نضع الخط الفاصل بين الفريقين ؟

أ) إذا كان البعض يرى أن نجران شكلت الحد الشمالي لانتشار الحضارة الزراعية لجنوب الجزيرة فان مفهوم «اليمن» يذهب عند الجغرافيين العرب ، الذين عالجوه إلى أبعد من ذلك شمالاً[٧] . كما أن قبائل نسبت إلى «عدنان» ، وجدت في تهامة في خط عرض يمكن اعتباره ضمن حدود اليمن الجغرافية مواز لجزائر دهلك[٨] .

ب) هذه الحقيقة ذات أهمية خاصة في فهم العلاقات بين عرب الشمال وعرب الجنوب من حيث أنه كانت هناك «منطقة تداخل» بين ماهو «يمني» وماهو «شامي» من الناحية الجغرافية البحتة[٩] . وبين ماهو قحطاني (؟) وماهو عدناني (؟) من الناحية

النسبية (ولا أقول السلالية أو العرقية كما صور في وقت متأخر) . . هذا التداخل يتجلى في الاختلاف الذي ثار بين النسّابة حول حقيقة انتماء قبيلة قضاعة وعشيرة عك بالذات .

ج) وهكذا . . فاننا إذا لاحظنا أن عسير في عرف الجغرافيين العرب على مدى التاريخ يمانية وإذا لاحظنا أن أعالي الحجاز كانت منطقة حضارية متصلة بالشام بل وبيلاد مابين النهرين (مع ملاحظة امتداد الأثر اليمني في تلك الأنحاء كما حدث في العلا) فان ما يبقى من الحجاز خارج الاطارين بسيط . . ربما لا يتجاوز احباط مكة .

وقد يكون لهذه الملاحظة (إذا صحت) بعض الدلالات منها :

١) إن ظل الحضارة اليمنية قد امتد ليلتقي بظل الحضارات الشمالية وتأثيراتها في نقطة وسط أسفل الحجاز .

٢) وأن هذا قد يفسر في بعض الجوانب الدور الذي بدأت تلعبه مكة بقيادة قريش قبيل الاسلام وحتى ظهوره منبعثاً منها . وهو يفسر في نفس الوقت الأهمية التي نالتها قبيلة هذيل المجاورة لمكة والتى برز من بين أبنائها شعراء مجيدون .

بعد الميلاد وقبل السلام

لقد بدأ ظهور العشائر العربية الشمالية (التي وُسِمَتْ فيما بعد ـ ربما في فترة متأخرة نسبياً ـ بالعدنانية) في النقوش

السبئية خلال القرون الأولى من العصر المسيحي كما حدث نفس الشيء للقبائل/ الشعوب التي عرفت بالقحطانية .

أ) فمن الفريق القحطاني نجد اسم (قحطان) نفسه إلى جانب كندة أصحاب مملكة مركزها وادي الدواسر وكذلك الأزد (الأسد) ومذحج وغسان (في وقت مبكر أكثر مما توقع الأخباريون . . بل وتنوخ بجوار الفرس[١٠] .

ب) ومن الفريق العدناني نجد الأسماء الرئيسية كلها تتوارد بالتدريج :
نزار (اصحاب مملكة)
ومضر
ومعد

كما سجلت النقوش أسماء عشائر متفرقة اختفت ولم تبلغ اخبارها النُسَّاب[١١] فمنذ أواخر القرن الأول للميلاد (غالبا) تحدثنا النقوش السبئية عن هجمات وتحرشات العشائر العربية أو الأعرابية(؟) .

ففي عهد (نشأ كرب يهأ من ملك سبأ بن ذمار علي ذرح) نجد نقوشاً تتحدث عن الأعراب حول مأرب مما يوحي باستقرار قديم للبدو في أنحاء مأرب . ولا غرابة فان مأرب التي أقيمت خصيصاً على أطراف الرمال لتكون عاصمة وحاضرة على طريق

البخور قد جذبت إليها حتماً أبناء الصحراء بدواً ورعاة في خدمة أبناء المدينة أو جَمّالة في خدمة قوافلها التجارية . . فوجود البدو على أطراف المدن ظاهرة تتكرر حتى يومنا هذا في المدن العربية وقديماً كانت قريش تنقسم إلى قريش الأباطح وقريش الظواهر(١٢) . كما أنه في عهد نفس الملك حدثت غارات شنها جيش عرب السفال/ سفلن = الأراضي الواطئة الى الشرق والجنوب من نجران في اتجاه الصحراء . وكانت تلك الاشارات هي أقدم ما بلغ إلينا عن أولئك الأعراب/ العرب (عربن) ؟(١٣) ومنذ ذلك التاريخ وحتى ظهور الاسلام لعب أولئك الأقوام أدواراً متنوعة ومتطورة بشهادة النقوش السبئية ثم الحميرية فقد ظهروا في النقوش :

أ) عناصر مخربة تغير على أطراف الأراضي الزراعية في مأرب ومغارب حاشد الخ . . قادمة من أطراف الربع الخالي الفرعية أو متسللة من خلال السراة وتهامة .

ب) وظهروا مقاتلين في جيوش الممالك اليمنية نفسها بما فيها مملكة حضرموت التي كانت تمر بفترة ازدهار ، ففي النقوش السبئية إشارة إلى «أعراب ملك سبأ» مما يوحي بسابق تقليد لدى السبئيين باستخدام أولئك الأعراب/ العرب جنداً لهم - غير نظاميين (!) .

ج) كما ظهروا في القرنين الثاني والثالث في صورة ممالك (قيل عنها أنها بدوية !) فيما سمته النقوش (شامت) . . وتقصد حتماً

الأراضي الواقعة شمال مملكة سبأ . ولعل أهم تلك الممالك مملكة كندة وقحطان في وادي الدواسر (قرية الفاو) .

د) وظهروا في نفس الوقت ـ إلى جانب الأحباش الغزاة الذين تسللوا إلى السراة وتهامة .

فكيف عسانا نفسر كل ذلك ؟ هل هم منكفئون من الشمال فارّون أمام ضغط قادم من الشمال (؟) كما يريد البعض ؟ ربما حدث هذا في فترة متأخرة ، ولكن النقوش السبئية لا تساعد على تقبل هذا التعليل . . فهي تحدد مواقع أولئك الأقوام والتي لا تبعد عن أراضي سبأ . . كما أن تلك النقوش في حالة وجود تحريض خارجي كانت تحرص على ذكره ، كما حدث في أمر التمرد النجراني على عهد (الشرح يحضب) وأخيه . . فهل من تعليل آخر ؟

أ) إن أولئك الأقوام كانوا من قبل يعيشون بدواً على أطراف المدن اليمنية كما تقدم . وحول محطات القوافل خارج حدود اليمن السياسية حينذاك يعملون في خدمة مجتمعات القارة ونشاطها التجاري ويمارسون معها تبادلاً تجارياً في سلعهم البدوية . وكان أولئك الأقوام في أول الأمر أضعف من أن يقلقوا أراضي الممالك اليمنية خاصة سبأ ، أو أن يتعرضوا لقوافلها ، بل لعلهم لم يكونوا بحاجة إلى الاعتداء عليها .

ب) ولكن بعد غزوة «اليوس جالوس» واضطراب حركة القوافل أو ضعفها لعوامل مختلفة سياسية واقتصادية ربما استشعروا الحاجة الى الإغارة لتعويض ما فاتهم من منافع كان يجلبها لهم مرور القوافل بأراضيهم . . كما لعلهم استشعروا القوة والجرأة للاقدام على ذلك . ويمكن تعليل ذلك الضعف (في جانب منه على الأقل) باضطراب الأوضاع الاقتصادية ربما نتيجة لازدياد أهمية الطريق البحري على حساب الطريق البري . . إلى جانب ضعف الاقبال على بعض السلع اليمنية الخ ، بل لقد أدت الأوضاع ذاتها إلى قيام صراع على أرض اليمن بين الحميريين وسبئيي المرتفعات (في الرحبة وما عرف ببلاد همدان)..

ج) زاد الطين بلة دخول اكسوم حلبة الصراع الاقتصادي العسكري متطلعة إلى السيطرة على التجارة البحرية ، فقد لوحظ اتصال الاكسوميين بسكان البر اليمني المواجه لشواطئهم :

- في نجران
- في مناطق عك المواجهة لجزر دهلك
- وفي السراة وتهامة

وكانوا يحرضون تلك الجماعات على مهاجمة الممتلكات السبئية . .

واذا ظل بعض أولئك العرب (وهم غالباً سكان الأجزاء الجرداء) عشائر لا ضابط لها تمتهن السلب والإغارة ، فان جانبا آخر

منها (على طريق القوافل وفي الأودية) قد استطاع أن ينظم نفسه في شكل دويلات (كما تقدم) اعتماداً ـ ولاشك ـ على :

أ) تراكم الثروات نتيجة انشغالهم بالتعاون مع القوافل اليمنية فترة طويلة .

ب) تراكم الخبرات الحياتية والعسكرية نتيجة الاحتكاك الطويل بممالك اليمن . وربما نتيجة العمل في خدمة الجيوش اليمنية أو في حراسة القوافل .

وهكذا يمكننا أن نتوقف لنستعرض ما مر بنا من أدوار العلاقة بين الفريقين (عرب الشمال وعرب الجنوب) :

١) دور : كان فيه اليمنيون (سبأ بالذات) هم الأقوى والأعتى والأكثر تنظيماً واستقراراً ، وعرب الشمال الأدنون منخرطين في خدمتهم بصورة أو بأخرى .

٢) دور : أصبح فيه اليمنيون (سبأ) على الأخص ، أقل قوة عن ذي قبل يخوضون في نفس الوقت صراعاً داخلياً تذكيه أطماع خارجية أيضاً . . وعرب الشمال في هذا الدور :

أ) إما محرومون من خيرات التجارة اليمنية متضررون من التحولات الاقتصادية ، ولذلك فهم متمردون مغيرون على المجتمعات والمدن اليمنية (ويذكرنا هذا بحركة الصعاليك في فترة لاحقة) .

ب) وإما عشائر كبيرة نسبياً استفادت من الرخاء القديم خبرة ومالاً فنظمت نفسها في شكل ممالك . . ومنها كما قلنا كندة/ قحطان في وادي الدواسر والتي انضمت اليها مذحج في وقت من الأوقات .

ولعل الدليل على وجود الطائفتين هي الإشارة التي وردت في (جام ٥٧٦) الى امرىء القيس الذي أخطأ في حق السبئيين «ومالك» ملك كندة وأعوانه الذين أخذوا بجريرة المتمرد (كما سنرى فيما يلي) .

نعود ونقول إنه منذ بداية العصر المسيحي بدأت العشائر الشمالية في الحجاز وتهامة وأطراف نجد تأخذ شكلها الذي عرف في كتب الأنساب . ويعود ذلك ـ فيما يبدو ـ إلى أنها في غياب الهيمنة السبئية وضعف نفوذها نظمت نفسها في كيانات على أساس عشائري ملتفة حول أسر معينة فيها استطاعت أن تجمع في يديها ثروة لابأس بها وأن تكدس بعض السلاح . . فظهرت الدويلات التي تسمي النقوش السبئية حكامها (في عهد الشرح يحضب الثاني) أملك ، أشعب ، غسان ، ونزار ، ومذحج ، والأسد ، مثلا(١٤) .

ولا ندري متى أطلقت تلك العشائر الشمالية على نفسها اسم معد (الذي ظهر في النقوش في فترة متأخرة نسبيا) أو من أطلقه عليها . . على ان الكتابات الكلاسيكية تماماً مثل النقوش السبئية

اخذت تطلق اسم معد على جُمّاع من القبائل ربما تفرعت بالفعل من نزار أي مضر وربيعة (كما أسلفنا) .. وبهذا تكون النقوش شاهداً مؤكداً ، الى حد بعيد ، على صحة بعض أسس علم الأنساب .. وهو علم (في تقديرنا) نشأ مرافقاً لنشأة الدويلات الشمالية كنزار مثلاً أو مقترناً بذكراها بعد زوالها .

على ان أقدم دويلات وسط الجزيرة (فيما لدينا من نصوص معروفة) هي تلك التي جمعت بين كندة وقحطان وكان مركزها قرية ذات كهل أو قرية الفاو (الاسم الحديث) في وادي الدواسر ، كما تقدم ، مبدأ الطريق نحو اليمامة والاحساء/ البحرين .. ولا نستبعد ان قحطان هذه التي عاصرت ممالك الشمال البدوية هي التي أورثت اليمانيين (عند النسّابة) جدهم الأسطوري (وهذا حديث ليس هنا محله) . وقد جاءت أقدم إشارة معروفة اليهم من عهد شعر «أوتر» الملك الهمداني السبئي الذي جرد حملات على قدية نفسها ، ويبدو أن أهل «قدية» قد كانوا وقتها وراء تحرشات الأعراب (خاصة في السفال) بأطراف سبأ وطرق القوافل . فنحن لا نلبث أن نرى كندة ، في العهد الذي يلي شعر أوتر ، مسؤولة لملوك سبأ عن خفارة الطرق حتى أنها لتطالب بتسليم المخربين كما أسلفنا .

فحينما استعادت سبأ إلى يدها زمام الأمور او كادت وبدأت العلاقة التاريخية مع قبيلة كندة الكبيرة ظهرت في النقوش المعروفة

كيانات أخرى من بينها كيان لنزار وآخر لغسان (كما أسلفنا) ، وكلا الكيانين لم تحفظ لنا الذاكرة العربية شيئاً عنهما . كما ظهر كيان للأسد (الأزد) ربما بقيادة ملك يدعى الحارث بن كعب لعله نفسه الذي انتسبت اليه فيما بعد قبيلة بلحارث بن كعب ، والأزد (بالاجماع) قبيلة يمنية ، ولكنه لا تنتمي (في ما وصل إلينا) الى أي من الكيانات السياسية اليمنية القديمة المعروفة . . بل كانوا في الغالب يتركزون حول نجران .

وكل هذا إنما يؤكد أن مفهوم اليمن الجغرافي أوسع بكثير من مفهومه السياسي بمعنى أن هناك أقواماً يعتبرون (في علم الأنساب المتأخر النشأة نسبياً) يمانية في حين أنهم لم يكونوا في العصور القديمة يشكلون جزءاً أساسياً من الكيان السبئي مثلاً وهو أقرب الكيانات الى وسط الجزيرة . . وبعبارة اخرى إن أولئك اليمنيين كانوا أقرب إلى البداوة (ولا أقول الأعرابية) في أسلوب حياتهم إذ كانت ثرواتهم تقدر غالباً بعدد ما يملكون من جمال . ومن طريف ما يذكر ان الخفارة التي دفعها رؤساء كندة وكبارهم اشتملت على عدد من الجمال قدموها للملكين السبئيين (الشرح يحضب) ، وأخيه (يأزل بين) والى الإله السبئي «المقه»[١٥] .

وهذا يجعلنا نقول انه ربما كانت تلك القبائل من كندة ومذحج وأزد بل وربما خولان القضاعية (خولان الشام/ الاجدود) في أنحاء صعدة ومعهم عرب السفال قد وجدوا على أطراف سبأ عاملين في

خدمة قوافلها حداة وحراساً ورعاة إبل وماشية الخ . . ولعلهم كانوا حينها يعدون أنفسهم - إبان ازدهار سبأ - جزءاً منها ، تماماً كما دخلت أقوام كثيرة في همدان بعد وصول تلك الأسرة الى عرش سبأ ولم تكن - بشهادة النقوش - من قبل همدانية[١٦] ولعل في انفضاضها عنها بعد ذلك تفسيراً للقول السائر :

«تفرقوا أيدي سبأ»

ومن ناحية أخرى فقد وجدت في منحدرات السراة نحو تهامة وقريباً من الطائف وحول مكة عشائر أخرى (سميت فيما بعد عدنانية) هي عشائر (داءة) في أرض هذيل[١٧] التي عرفت في النقوش باسم دوأت (جام ٦١٦) على عهد نشأ كرب بن الشرح ويازل (القرن الثالث الميلادي) . . وكانت هذه العشائر لفقر أرضها تمارس الغزو من أجل السلب . أي انها كانت طليعة الصعاليك الذين ظهروا في القرن السادس[١٨] وكان ظهور هذه العشائر في النقوش في وقت استتب فيه الأمر للسبئيين بعد حروب شعر أوتر والأخوين الشرح ويازل . . فهي إذن غارات سلب بدوية/ أعرابية لا صلة لها بالعلاقات بين الكيانات السياسية المعروفة .

وهكذا فانه في النصف الأخير من فترة سبأ وذي ريدان الانتقالية المضطربة فان العلاقة بين عرب الشمال (بما فيهم بعض القحطانيين) وعرب الجنوب (نقصد بذلك عرب الممالك اليمنية المعروفة وفي مقدمتها سبأ) سارت على الوجه التالي تقريباً :

١) تحرشات من البدو بغرض السلب والنهب أو بتحريض من كيانات عربية وأجنبية منافسة لسبأ .

٢) بعد حروب شعر أوتر أصبحت العلاقة مع الكيانات (البدوية)؟ تنطوي على شيء من خضوع تلك الكيانات وتبعيتها لسبأ .

٣) في أواخر نفس الفترة وبعد حروب الأخوين الشرح ويأزل ، التي أنزلت ضربات قاصمة بالخصوم الأساسيين : الحميريين والأحباش ومن والاهم ، ظهرت في عهد نشأ كرب (ابنهما) عشائر حجازية تمتد إلى شمال عسير في أنحاء خميس مشيط تمارس الغزو والسطو .

في العهد الحميري

بمجيء القرن الرابع الذي تم فيه انتصار حمير وانتقال مركز الحكم إلى ظفار ، وبعد أن تمت تصفية الوجود الحبشي الذي انتشر من قبل في تهامة والمعافر ، نشهد تطوراً جديداً في العلاقات مع أولئك البدو وتتمثل في انخراطهم في جيش بدوي يرأسه قائد سبئي (جدني) تقوم رئاسة أركانه بمدينة نشق في الجوف . . ويحمل لقب كبير الأعراب (الارياني ٣٢ وجام ٦٦٥) ولم تكن هناك ـ أغلب الظن ـ ممالك بدوية ذات شأن في وسط الجزيرة . . ولكن نفس الفترة كانت قد شهدت رسوخ اللخميين في الحيرة ، وأصبح وسط

الجزيرة منطقة صراع بين حمير ودول/ الأطراف الشمالية لشبه الجزيرة .

التبابعة :

وبذلك الجيش الأعرابي استطاع (ابكرب اسعد) أن يتوغل في مطلع القرن الخامس شمالا في نجد حتى مأسل الجمع (التي ذكرها امرؤ القيس في بعض شعره)(١٩) ويعتقد أنه نتيجة ذلك اتخذ ابكرب وابناؤه اللقب الطويل :

«ملك سبأ ذي ريدان وحضرموت ويمنه واعرابهم طودا وتهامة» .

وبدعم من الحميريين كما يعتقد قامت مملكة كندة الثانية وأصبح ملوك حمير يعرفون بالتبابعة وهو اسم - وان لم تذكره النقوش المعروفة - حفظه لنا القرآن الكريم وتناولته الكتب الاسلامية ، وهو يدل - إن دل على شيء - على بلوغ النفوذ الحميري أقصى مداه في الجزيرة .

ولقد كان القرن الخامس رغم قلة ما وصل إلينا عنه قرناً غنياً بالصراع الفكري المذهبي الذي أذكته التحولات الاقتصادية والسياسية الدولية والصراعات الاجتماعية والدولية ، وفيه لابد أن نتلمس بدايات الشعر الجاهلي الذي وصلت الينا نماذجه العائدة الى القرن السادس بالغة النضج الفني واللغوي .

ولهذا فإنا نرى أن الدور الذي بداه اليمنيون مع أول قافلة متجهة نحو الشمال عبر فيافي وأودية وجبال ورمال الجزيرة قد أدى الى تحضير بعض العشائر الشمالية البدوية من جراء احتكاكها بالحضارة اليمنية .

القرن السادس :

وإذا بدا لنا القرن السادس بحروبه القبلية (أيام العرب) قرناً من الفوضى والصراع الدموي . فانه ينبغي ألا يغيب عنا أنه القرن الذي قدم لنا خير نماذج الشعر العربي القديم ، وأنه ليس من الصعب علينا أن نفهم أسباب ذلك الصراع المحير والتي ربما جاز لنا أن نلخص بعضها في :

أ) غيبة السلطة المركزية التي تحطمت بسقوط التبابعة وذهاب الادارة الكندية في أثرهم والتي حاول حكام اليمن إعادتها ولم يفلحوا (غزوات أبرهة في شمال الجزيرة) .

ب) الصراع الفارسي البيزنطي الذي شملت مخططاته وآثاره اليمن والنظم العربية المرتبطة بتينك الدولتين .

ج) تكدس الثروات والأسلحة مرة ثانية في أيدي بعض الأسر ذات النفوذ في العشائر الشمالية .

د) الصراع الايديولوجي بين معتنقي الأديان السماوية ومذاهبها المتناحرة . . وفي ما تمخض في وسط الجزيرة من اتجاهات

فكرية محلية .. كالحنيفية في الجانب السلمي وحركة الصعاليك في الجانب العنيف الخ ..

لغات أهل هذه الجزيرة :

وهنا نرى من الأمانة ان نقول ان هناك من رأى في اتصال اليمنيين بعرب الشمال آثاراً سلبية على الحضارة اليمنية فبقدر ما أثر اليمنيون في أولئك الاعراب (؟) تأثروا هم أنفسهم بهم واتخذوا بعض عاداتهم ، ويركز أولئك الدارسون على الأثر اللغوي فيصفون ما حدث من تقارب بين لهجات اليمن ولهجات الشمال «استعراباً» اصبح اليمنيون وفقاً له «عرباً مستعربة» . وليس بمقدورنا أن نناقش في هذا الموقف هذا الرأي ، وغاية ما يمكن أن نقوله هنا هو :

أ) إن اليمانية ـ كما رأينا ـ لم تقتصر على الحدود السياسية لمملكة سبأ أكثر الممالك القديمة توغلاً في الشمال .. وان هناك جماعات وجدت منذ القدم حول الجوف ونجران وعند ملتقى أودية عسير التي تصب في الدواسر .. كانت في عرف الشماليين أنفسهم يمانية وكانت بحكم الجوار أكثر قربا في لهجاتها الى عرب الشمال .. وبين هذه الجماعات علينا أن نتلمس أقدم الشعراء الجاهليين اليمانيين[٢٠] .

ب) بل إنه في الجوف نفسه وجدت مملكة «هرم» التي لاحظ العلماء قرب لهجتها من العربية الشمالية .. وأكثر من ذلك فإنه في

قلب المضبة اليمنية على أطراف بلاد همدان في عمران (البكيلية حينذاك) كانت لهجة المساند لا تختلف كثيراً عن اللهجة الهرمية .

ج) ولقد استقرت بوسط اليمن في نهاية المطاف (قبل الاسلام) جماعات كانت تعيش قبل ذلك في الانحاء الشمالية منها كندة (بحضرموت) ومذحج (فيما عرف بسر ومذحج) ومراد (ببلاد مراد) الخ . ونشأت نتيجة لذلك التفاعل على المدى الطويل تلك الصورة اللهجوية التي رسم لوحتها الهمداني[٢١] .

د) ولاشك أنه بقيت في اليمن مناطق قيل عنها أن لغتها غير فصيحة . . بل إن لدينا جيب المهرة وظفار حيث تعيش لهجة قديمة تعود أصولها ، أغلب الظن ، إلى ما قبل عصر الحضارة اليمنية ذاتها ، ولكن كل هذا لا يمكن تفسيره ضمن إطار العلاقات بين عرب الشمال وعرب الجنوب . ولا يتسع الوقت للتعرض لهذه المسألة التي لم تنل منا ما تستحقه من عناية .

وأخيراً . . فان انتقال مركز الثقل في القرن السابع إلى وسط الجزيرة إلى مكة تلك المدينة التجارية التي التقت عندها ، كما قدرنا ، الموجات الحضارية القادمة من الشمال ومن الجنوب لم يكن - في تقديرنا إلا بلورة طبيعية لاحتكاك عرب الشمال بعرب الجنوب عبر قرون طويلة . . ولعله من المناسب أن نختتم باشارة وردت في الاكليل تقول بوجود جالية همدانية في الجاهلية بمكة متصاهرة مع قريش «ولها خير عقارها»[٢] .

هوامش

١) هذا ما يستخلصه المرء من كتابات بعض المستشرقين ومن ينحو نحوهم .

٢) انظر على سبيل المثال :

LAMBERT, W. G,: Nabonidus in Arabia, in Proceedings of the Seminar for Arabian Studies, 2, 1972, p 53-64.

٣) انظر مثلا : محمد عبد القادر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، بيروت ١٩٧٣ .

٤) RYCKMANS, j. Aspects Nouveaux du probleme Thamoudeen, dans Studia Islamica V P 5-17, Paris, 1956.

٥) وزيادة على ذلك فإن الأسماء تتعرض في تلك المؤلفات للتحريف عند نقلها الى الاغريقية أو اللاتينية ثم تصحف على أيدي النساخ المتعاقبين على المخطوط الواحد .

٦) HITTI, philip k.- History of the Arabs, 10th Ed. London, 1974, p 68-70.

وخليل يحيى نامي : دراسات في اللغة العربية ، القاهرة ١٩٧٤ ص ٢٨ .

٧) انظر على سبيل المثال الهمداني أبو محمد الحسن بن أحمد . صفة جزيرة العرب ، تحقيق القاضي محمد علي الأكوع ، الرياض ١٩٧٤ ، ص ٥٩ و ٦٥ .

٨) المصدر أعلاه ص ١١٨ و ١٣٠ . ورضا كحالة : معجم القبائل العربية ، بيروت ١٩٦٨ مادة «عك» .

٩) استخدمنا «شامي» هنا بمعنى شمالي كما تستخدم حتى يومنا هذا حيث يطلق على خولان صعدة خولان الشام لأنها تقع في الشمال من اليمن نفسه .

وانظر أيضاً :

YAJIMA, Hicoichi, A Chronicle of the Rasulid Dynasty of Yemen, Edirea and indices by..., Tokyo, 1976.

للعبارات التالية في فهرسه :

الشام

البلاد الشامية

الأعمال الشامية

الجهات الشامية

السواحل الشامية

ومن ناحية أخرى فانه يلاحظ ان فريقاً من هذيل ، التي كانت ديارها تقع فيما بين الطائف ومكة ، يعرف «بهذيل اليمن» لمجرد وقوعه في الجنوب من تلك الديار متصلا بعسير .

١٠) بخصوص قحطان ، انظر مثلا بافقيه المصدر أعلاه (هامش ٣) ص ١١٨ حيث يعالج النقش (جام ٦٣٥) . وعن تنوخ والفرس انظر :

MULLER, W. W., Eine Sabichegesandtshaft in Ktesphon und Seleuxkeia, in Nene Ephemeris Fur Semitisich Epigraphik, 2, Wiesbaden 1974, p 155-165.

١١) انظر بافقيه المصدر أعلاه ص ٨٧ ـ ١٧٢ حيث يعالج النقش (جام ٦١٦) .

١٢) انظر على سبيل المثال : ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ، القاهرة ط٤ ١٩٦٩م ، ص ٢ وما يليها .

١٣) قارن بـ (YAJIMA) المصدر اعلاه (هامش ٩) للعبارات التالية في الفهرس :

العرب
العرباء
العربان
بلد (بلاد) العرب
١٤) زيد علي عنان : تاريخ حضارة اليمن القديم ، القاهرة ١٣٩٦ هـ النقش ٧٥.
١٥) انظر بافقيه المصدر أعلاه ص ١٣١ بما جاء في (Yajima) المصدر أعلاه وهي للعبارات التالية في فهرسه :
خيل/خيول
خيل العرب
خيل المعاربة
١٦) قارن بما جاء عند الهمداني : الإكليل ٢ تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع ، القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٢٤٨ .
١٧) انظر : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي . معجم ما استعجم من اسماء البلاد, والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، ط١ ، القاهرة ١٣٦٤ هـ= ١٩٤٥م ج٢ ص ٥٣٠ مادة داءة . .
١٨) احمد كمال زكي المصدر أعلاه ص ١٩٦ عند الحديث عن ذؤبان هذيل وص ٢٥٠ عن تفشي ظاهرة التصعلك في هذيل .
١٩) ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمود ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٩م ص ٩ حيث يقول امرؤ القيس :
كذينك من أم الحويرث قبلها . . وجارتها أم الرباب بمأسل .
٢٠) قارن بطه حسين : في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٩٧٥م، ص ١١ .
٢١) الهمداني : صفة جزيرة العرب (المتقدم ذكره) ص ٢٧٧
٢٢) الهمداني : الإكليل ٢ (المتقدم ذكره) ص ٢٩ .

- محاضرة ألقيت بكلية التربية (جامعة عدن) في ١٦ ابريل ١٩٧٨ ونشرت في «التراث» ٣ عدن نوفمبر ١٩٧٩ .

٢

اللقب الملكي الحميري

لقب التبابعة

مازال الغموض يكتنف جوانب الكثير من العناصر التي يتكون منها اللقب الملكي الحميري ، لقب التبابعة ، فالآراء المعروضة لشرح مدلولات بعض الأسماء فيه ليست بقاطعة ، وما زال الباب مفتوحاً لتعليلات جديدة تقوم على معطيات لم يؤخذ بها من قبل . ومن هنا كانت ضرورة العودة إلى الموضوع ومحاولة إلقاء المزيد من الضوء على تلك الزوايا المعتمة .

وأول ما يجدر بنا التأكيد عليه هو أنه ما من سبيل إلى فهم كل ما يرمز إليه اللقب المذكور إلا إذا تتبعناه في مراحل تطوره من بدايته البسيطة «ملك سبأ» الى نهايته المركبة : «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنه وأعرابهم طود وتهامة» ـ تلك المراحل التي استغرقت في مجملها قروناً عديدة بدءاً ببروز العنصر الحميري على

مسرح الأحداث ، ومروراً بفترة إزدهاره الأولى التي أصبح فيها قوة يحسب لها حساب ، وانتهاء بالعصر الذي غدا فيه وحده القابض على زمام المبادرة في اليمن ، ثم في شبه الجزيرة كلها ، وذلك في القرنين الرابع والخامس للميلاد .

ملك سبأ

إن الجزء الأساسي في اللقب والقاعدة التي شيدت عليه الإضافات هي «ملك سبأ» . والمقصود بسبأ هنا هو القبيلة المعروفة صاحبة مأرب . فالملكية ، كما لاحظ بيستون ، هي في الأساس ملكية قبلية . أي أن الملك هو رئيس القبيلة . وما أكثر من كانوا يحملون لقب ملك في الجزيرة العربية وفي اليمن بالذات خاصة قبل منتصف القرن الخامس للميلاد . . . ففي عهد كرب إل وتر الملك السبئي الكبير كان هناك الكثير من ملوك القبائل والمدن مثل نجران ، ومهأمر ، ونشق ، ونشان على سبيل المثال .

ولكن بمضي الوقت استطاعت سبأ أن تفرض هيمنتها على الكثير من تلك الممالك اليمنية الصغيرة . هذا ما نلمسه بوضوح من نقش (كرب إل) نفسه الموسوم بنقش النصر .

ولعله للتعبير عن تلك الهيمنة اتخذ ملوك سبأ ، وكرب إل أحدهم أو أولهم لقباً إضافياً هو مكرب الذي لا يعرف أحد كيف كان ينطق ولا ماذا يعني على وجه التحديد .

إننا ، مع تقديرنا لكل ما اقترحه من سبقونا تفسيراً للقب المذكور ، نميل ، من قراءة النقوش واستقراء السياق التاريخي الذي وردت فيه ، إلى أن من ابتدعه ومن جاء بعده إنما أراد أن يشير به الى حقيقة كونه ملكاً تخضع له قبائل ، غير قبيلته الأصلية ، لها ملوكها القبليون . ولا يمنع ذلك من أن يكون الخضوع المشار إليه في إطار اتحادي . فاللامركزية كانت سمة من سمات الحكم في اليمن أملتها طبيعة الأرض ، كما أن النزوع الى الوحدة أو الاتحاد كان سمة أخرى له أملتها ضرورات طبيعية أيضاً . وانه في ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفهم الحروب الداخلية التي شهدها اليمن .

وفي سبأ يبدو أن قبضة الملوك السبئيين على الممالك الصغيرة ازدادت قوة فتغيرت صيغة العلاقة القديمة وزال معهابالتدريج لقب الملك في القبائل التابعة وظهر بالمقابل ، أو طغى ، لقب القيل فيها ، فقام نظام القيالة ، وهو نوع من الاقطاع القبلي المحلي ، الذي يقف على رأسه ملك واحد ، وانتفت بذلك الحاجة إلى لقب مكرب .

عند ذاك استقرت حدود الدولة السبئية ، من أنف اللوذ شمالاً الى ما وراء ذمار جنوباً شاملة الجانب الأكبر من الجوف ومن الهضبة الغربية ذات الحقول الخصبة ، وتحكمت بذلك في منافذ طريق القوافل نحو الشمال .

ملك سبأ وذي ريدان

باقتراب عصر الميلاد ، وخاصة في القرن الأول قبله ، حدث تطور في الأوضاع الاقتصادية نتيجة ازدياد حركة التجارة البحرية التي أكسبت الموانىء اليمنية عامة ازدهارا ملحوظا . ومن بين تلك الموانىء موزع[1] وعدن ، شمال وجنوب غرب باب المندب . وسرعان ما برز بنو ذي ريدان الأذواء الحميريون أصحاب القصر ريدان بمدينة ظفار ، قوة ذات شأن في ذلك المكان .

واختل من جراء ذلك ميزان القوى في المنطقة وكان على السبئيين أن يحاولوا إعادة الأمور الى نصابها ، وهو النصاب الذي يضمن لهم استمرار التحكم في التجارة . ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ينشأ فيها مثل ذلك الوضع . في مغارب اليمن ، مجال النفوذ السبئي ، فقد تكرر حدوثه من قبل مرتين على الأقل وذلك إبان ازدهار أوسان ثم خليفتها قتبان .

كانت سبأ مازالت من القوة بحيث تستطيع مواجهة الوضع الناشىء . وكان العلاج الوحيد هو نفس العلاج القديم : فرض الهيمنة .

ولأمر ما لم يحاول ملوك سبأ العودة إلى لقب مكرب الذي عفا عليه الزمان . وربما كان ذلك لأن المنطقة أو المناطق التي ينبغي

إخضاعها لم يكن يَحكمها ملوك ، وقد يكون ذلك لاعتبارات أخرى .

وهكذا ولد الابتكار الجديد وهو إضافة اسم المنطقة الخاضعة كما يقول البعض ، أو اسم سكانها ، كما نرجح نحن إلى اللقب الملكي . فكان لقب «ملك سبأ وذي ريدان» بإضافة «ذي ريدان» إلى اللقب القديم ، وهي الإضافة التي ثبت أنها كانت فاتحة لإضافات أخرى كما سنرى وإن كان مضيفوها من غير سبأ .

ولقد اختلف الباحثون القدامى حول مدلول «ذي ريدان» في اللقب . كما اختلفوا حول أي من الجانبين السبئي أو الحميري كان صاحب المبادرة فيه . وكان العامل الأساسي في ذلك الاختلاف عدم الإتفاق على كرونولوجيا (تسلسل زمني) للأحداث المعروفة لتلك الفترة إلى جانب نقص في المعطيات المتاحة للباحثين .

ومما زاد مهمة الباحثين صعوبة هو أن «ذا ريدان» كان لقب الأذواء بني ذي ريدان قبل أن يتخذوا لقب الملك . وكان طبيعياً أن يتصور البعض أن اللقب الجديد لقب مركب أو مزدوج ، كما عبر عنه ، يتكون من لقبي «ملك سبأ» السبئي» و «ذي ريدان» الحميري . وهو ما استبعده جاك ريكمانز وكان فيه محقاً ، وإن مال إلى اعتبار «ذي ريدان» اسماً لمنطقة .

ولكن «ذا ريدان» أو ذريدن كما في النقوش ، يمكن اعتبارها في بعض الأحوال من نوع ذيمنة في النقوش أيضاً ، وهي المقابل لـ

«ذي يمن» في عربيتنا كما في قول الرسول عليه الصلاة والسلام : «خير ذي يمن جرير بن عبد الله» أو قول الشاعر الجاهلي :

يوماً يمانياً إذا لاقيت ذا يمن
وإن لقيت معدياً فعدناني

ومعنى ذيمنه (ذي يمنه) وذي يمن هو صاحب اليمن أو اليمني للمفرد وأهل اليمن أو اليمانية للجمع .

إن «ذا ريدان» اسم بديل للقوم أو القبائل التي عرفت في التاريخ باسم حمير . وسنرى فيما يلي كيف أن هذا يتماشى مع الأجزاء الأخرى في اللقب .

كما أن مبتدع الإضافة لا يمكن إلا أن يكون سبئياً من حملة لقب «ملك سبأ» .

ولا يغير من مدلول الإضافة شيئاً ان اللقب المركب قد اتخذ ، ابتداءً من مرحلة معينة في التاريخ ، من قبل بني ذي ريدان ، فذلك لم يحدث إلا بعد أن أجبر على التخلي عنه ملوك سبأ من الأسرة التقليدية .

ولقد قاوم أقيالٌ من أرض سبأ ذلك التحدي الريداني/ الحميري باتخاذهم مجدداً نفس اللقب كملوك خلفوا الأسرة التقليدية في مأرب وما تبقى من أرض استعصى على الحميريين ابتلاعها .

وطال الصراع بين ملوك سبأ وذي ريدان السبئيين وملوك سبأ وذي ريدان الحميريين فترة دامت قرنين من الزمان أو نحو ذلك . ولم يتوقف إلا قرب نهاية القرن الثالث ، وهو الوقت الذي توصل فيه ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش الى استلام مقاليد الحكم في مأرب ، ممثلة في قصرها الملكي سلحين الرمز التاريخي للسلطة في سبأ ، إضافة إلى قصرهم ريدان رمز السلطة في حمير . وانتهت بذلك مرحلة من التاريخ اليمني ورسخت وحدة العنصرين السبئي والحميري .

ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنه

لقد كانت الوحدة السياسية بين سبأ وحمير في ظل بني ذي ريدان قاعدة الانطلاق نحو إضافات جديدة . فهي التي سهلت لشمر يهرعش ، أول التبابعة ، بعد توليه الحكم منفرداً ، أن يبدأ خطوة جديدة نحو توحيد اليمن . فكان أن شرع في العمل على ضم حضرموت المناوئة من قبل لسبأ وحمير معاً . وقد تم في عهده الاستيلاء على شبوة العاصمة الحضرمية . . وأدخل شمر يهرعش في النصف الثاني من عهده إضافة جديدة هي حضرموت ويمنه ليصبح لقبه ولقب خلفائه ، الذين اكملوا المهمة من بعده ، هو : «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنه» .

ولم يكن اسم حضرموت المضاف إلا من نفس القبيل كسبأ وذي ريدان ، فهو اسم القبيلة التي قامت على اكتافها المملكة الحضرمية . وفي نقش النصر نجد بين حلفاء كرب إل : «يدع إل ملك حضرموت وحضرموت» على ان «يمنه» هي المشكلة . وذاك لانها لم تعرف من قبل اسماً لقوم أو قبيلة . ولو كانت جاءت على صورة ذيمنه ، كما في بعض النقوش ، لربما هان الأمر بعض الشيء وجاز لنا أن نقول إنها تعني أهل اليمن أو اليمانيين بمعنى أهل الجنوب . أما يمنه مجردة فيقابلها في عربيتنا يمن/ اليمن أو الجنوب إطلاقاً . ونحن إذا قبلنا هذا التفسير واكتفينا به ولم نناقشه فسنكون أمام مشكلتين في آن واحد تحديد مكان هذا الجنوب ؛ والاعتراف بأن اللقب لا يقتصر على تعداد أقوام أو قبائل وإنما يضم بين ذلك أسماء مناطق وهو ما يناقض ما ذهبنا إليه هنا . ولن يزول الإشكال حتى لو تراجعنا وقلنا ، كما قيل من قبل ، أن ما تقدم يمنه من أسماء إنما هي لمناطق أو كيانات ، إذ ستواجهنا مشكلة الإضافة اللاحقة كما سنرى .

وبما أن مسألة تحديد المقصود بالجنوب قائمة في كل الأحوال فلنر ماهي الحلول المعروضة والمحتملة .

أما الحلول المعروضة فتتسم بتضارب شديد . فبعضها يجعل «يمنه» أو يمنت (التي يكتبها البعض «يمنات» على غير دليل أو قياس) في تهامة اليمن فيما يذهب آخرون إلى أنها مجمل الأجزاء الجنوبية من

اليمن ولعل حجتهم هي أننا في اليمن نصف الجنوب بأنه يمن والشمال بأنه شام (شامت في النقوش) . ولقد تعرضنا لتلك الآراء في مقال لنا منشور خلصنا فيه الى القول بأن «يمنه» هي المناطق الجنوبية التي كانت تخضع لحضرموت(٢) . وعدنا إلى القضية في ورقة لنا هي قيد النشر وربطنا بين يمنه والساحل الذي كان يعرف في كتب الجغرافيا العربية باسم الشحر(٣) . وكان دافعنا الى ذلك ما رأيناه من اتجاه بعض الإخباريين العرب إلى اشتراط امتداد نفوذ الملك الحميري إلى «حضرموت والشحر» ليحق لنا أن ندعوه تبعاً .

حقاً إننا كثيراً ما ركزنا ، في ما كتبناه من قبل ، على حقيقة احتفاظ ملوك حضرموت بلقبهم البسيط حتى بعد أن أخضعوا مناطق لم تكن تابعة لهم من قبل وخاصة قتبان وردمان في القرن الثالث على سبيل المثال . ولكن هذا هو ما فعلته سبأ من قبل في مرحلة التوسع الأساسية التي تمت تحت لقب مكرب الذي لم تستبدله بشيء آخر حين تخلت عنه كما أسلفنا ، واكتفت بلقب «ملك سبأ» الموجود باستمرار . ثم إن حضرموت نفسها عرفت لقب مكرب وإن كنا لم نتبين بعد ملابسات استخدامه فيها أو أسباب تخليها عنه ولكنا نفترض أن تكون الدوافع متشابهة في كل من سبأ وحضرموت .

إن العبرة التي يمكن الخروج بها من كل ما تقدم هي أن مملكة حضرموت لم تكن مملكة قبيلة واحدة وان كانت حضرموت هي القبيلة الرئيسية فيها شأنها شأن سبأ في مملكتها ، ثم إن حضرموت

هو في الأساس اسم الوادي المعروف موطن القبيلة الأصلي والشحر هو الساحل المحاذي لذلك الوادي . وليس هناك ما يمنع من أن يوصف ذلك الساحل بأنه «يمنه» أو يمن .

وإذا صح هذا الاستنتاج أو لم يصح فان الأهم ، في اعتقادنا ، هو النظر في ما إذا كان في الإمكان اعتبار يمنه اسماً لجماعة من الناس .

إن إغراء محاولة الوصول الى تفسير كهذا لا يقاوم .

لاشك ان سكان «يمنه» (اليمن أو الجنوب) يشار اليهم عادة بعبارة «ذي يمنه» التي يمكن اعتبارها المقابل لذي يمن كما تقدم . فهل يسد ذلك الطريق امامنا ؟

ولكن ماذا لو أن «يمنه» للقوم كانت تختلف نطقاً عن «يمنه» المكان ؟

سبق أن استشهدنا في مقال سابق بلفظة «اليمنة» التي وردت في سياق يذكر بروداً يمنية[٤] . وفاتنا أن نلاحظ أنها كانت اسماً لتلك البرود وليس هناك ما يحتم اعتبارها اسما للمنطقة التي تأتي منها بإدخال أداة التعريف العربية على لفظة «يمنه» اليمنية .

ثم انه من ناحية الصيغة فان يمنت لا تختلف عن لفظة حبشت (التي تكتب هي الأخرى بلا سبب معروف على صورة حبشات) ويقابلها في عربيتنا «حبشة» .

ولكن ماهو المقابل للفظ يمنت/ يمنه في عربيتنا إذا كان يجوز أن نعتبرها اسماً لقوم ؟

هذا هو السؤال ؟

ولعل الجواب هو :

إنا كثيراً ما نسمع حتى اليوم عبارة يمنه بضم الياء وفتح الميم والنون بمعنى يمانيه أو يمانين . أفلا يجوز أن تكون هذه صيغة بديلة عن «ذي يمنه» وتكون يمنت ، كحبشت ، اسما لأقوام .

وأخيراً علينا أن نتذكر ان مشرقن (المشرق) تطلق في النقوش على منطقة بعينها كما تطلق على أهلها ولا يمكن تمييز أي من الاستخدامين من الآخر إلا من السياق .

ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنه وأعرابهم طوداً وتهامة

واصل خلفاء شمهر يهرعش حمل اللقب الملكي ، كما طوّره وطوّله هو ، ما لا يقل عن قرن من الزمان حتى جاء ابكرب أسعد المشهور في السير والأخبار باسم أسعد الكامل وأدخل إضافة جديدة كانت الأخيرة ، وهي عبارة : «واعرابهم طودم (طوداً) وتهمت (تهامة) .

وهنا علينا أن نتوقف قليلا لنرى ماكان عليه الوضع من الناحية السياسية والعسكرية قبل ابكرب أسعد .

لقد ظل التبابعة منذ أيام شمهر يهرعش ، أولهم ، يواصلون محاولة إخضاع القبائل البدوية المشاكسة في مرتفعات السراه والأغوار الواقعة بينها وبين البحر الأحمر والتي تعرف عند الجغرافيين العرب باسم تهامة . كما كانت بعض القبائل الأخرى تنتفض عليهم بين الحين والحين وخاصة مهرة (نقش عبدان الكبير) .

وبعد ، إن كل ما تقدم عن «يمنه» إنما هو قائم على اعتبارين هما :

١) إن شمهر يهرعش كان متوجهاً بكليته إلى إخضاع حضرموت التي دامت مقاومتها إلى ما بعد عهده .

٢) إن «يمنه» أضيفت إلى اللقب في الوقت الذي أضيفت فيه «حضرموت» ، ومن ثم نرجح وجود صلة بينهما .

ومع ذلك فلابأس من التقدم بفرضية أخرى قد تبدو جريئة أكثر من اللازم ، وهي أن «يمنه» في آخر اللقب لا تقتصر على مناطق اليمن الجنوبية وإنما أريد بها التعميم بعد التخصيص بمعنى أنه أعلن نفسه ، إلى جانب كونه ملكاً لممالك اليمن الثلاث الكبيرة : سبأ وحمير (ذي ريدان) وحضرموت فهو أيضا ملك لكل ماهو ، أو من هو يماني ، إذ «لا يستبعد أن تكون هناك ، على ذلك العهد ، كيانات صغيرة أخرى لا تندرج تحت أي من الأسماء المذكورة ولكنها تعد يمانية بمفهوم من المفاهيم ولا يستبعد أن يمنه كانت تستخدم أيضا بمفهوم أوسع بحيث تتجاوز كل مناطق الممالك القديمة وتتفق مع ما

عرفناه في الاسلام يمناً نعني مناطق القبائل التي انخرطت في عهده في جيش الأعراب وهي كنده ومذحج إلخ . ولا نعتقد أنه يضير الفرضية كثيراً أن تكون بعض النقوش حتى في أيام شمر نفسه وصفت المناطق شمال سبأ بأنها من شامه (الشام) لانها شمالية إذ أن ذلك من باب تحديد موضعها بالنسبة إلى سبأ وحمير . فهذا هو علهان نهفان مثلا يصف أرضا في بلاد خولان (التي توصف أحيانا بخولان الشام) أو فى اتجاهها بأنه في شامه (C 308) .

وعلى العموم فإنه إذا جاز إطلاق وصف «يمنه» على كندة ومذحج ومن إليهم من أعراب ، وقد كان ملوك كندة ـ تلك الأيام ـ ملوكاً لمذحج ايضا ، فإنه لا يستبعد أن أولئك الأعراب هم المقصودون ، أو من بين المقصودين بـ «يمنه» . وقد يقوي الفرضية حقيقة انحياز كندة في إحدى مراحل الصراع الى حضرموت في بدء توجه شمر نحو إخضاعها(٥) .

وهكذا يكون الغرض من ذكر يمنه إظهار إحكام شمر سيطرته على الموقف في اليمن ، وهذا أيضاً قد يسهل فهم الإضافة الأخيرة المتعلقة بالأعراب .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فهم سرعان ما احتكوا عدائياً بالقبائل النزارية والمعدية(٦) التي اجتاحها في مطلع القرن الرابع امرؤ القيس بن عمر ملك العرب كلها (نقش النمارة) .

ولكن الوضع في ظل ابكرب أسعد يبدو مختلفاً تماماً ، فهو يتجول في ركب كبير وبحرية وأمان في المناطق البدوية من وسط شبه الجزيرة . فمن هم الذين أخضعهم ابكرب أسعد حتى انه ليعلن ذلك بإضافة جديدة في اللقب .

ثم من هو المقصود بالضمير «هم» في لفظة اعرابهم ؟ قيل إن «هم» إنما تعود الى الملك الذي يحمل ذلك اللقب ، من قبيل التبجيل ، وهو ما سنعود إليه .

على أن المهم هو أن نلاحظ أولاً أننا مرة أخرى أمام قوم أو أقوام عديدين يصعب إطلاق اسم واحد عليهم سوى أنهم أعراب . وبما أن الأعراب موجودون في كل أنحاء جزيرة العرب بما فيها اليمن نفسه فإنه لابد من تحديد الأعراب الذين أخضعهم ذلك الملك .

والتحديد ، كما جاء في اللقب ، هو «طود» و «تهامة» . ولكن الطود قد يكون مجرد جبل أو حتى سلسلة جبال ، وتهامة ـ وان لم ترد في النقوش المعروفة قبل هذا العهد ـ فهي الغور الساحلي كله أو بعضه .

فهل قصد ابكرب بطود جبال السراة «من قعرة اليمن» على رأي الهمداني الى الحجاز شاملة اياه ؟ ومن ثم تكون تهامة كل الساحل المحاذي لتلك الجبال من الغرب . وهذا امر لا يمكن القطع فيه. برأي .

على ان هناك من يميل الى ان يجعل «الطود» وصفا لكل المرتفعات ومن ثم بعض أجزاء نجد على الاقل ، يدفعهم الى ذلك ما لمسوه من امتداد نفوذ ذلك الملك صاحب الاضافة في جنوب نجد . ولكن هذا يعني قيام مملكة مترامية الاطراف قد يصعب تصور قيام مثلها في ذلك العصر . ولكن ليس هناك ما يمنع من ان تكون قد قامت بالفعل .

الحق ان حل هذه العقدة يرتبط بما نفهمه من لفظة «طود» أو بالأحرى ما كان يفهمه اهل ذلك العصر منها .

كما يرتبط ايضا بالمقصود من «تهامة» وهل هي ذلك الغور الساحلي كله أو بعضه ؟ ثم لماذا لم تكن النقوش في الفترة السابقة على تطور اللقب (وبعضها يعود الى القرن الرابع الذي بدأ في آخره عهد ابكرب) تستعمل ذلك الاسم عند وصفها للمعارك الجارية في ما عرف عند الجغرافيين العرب بأنه تهامه اليمن مالم يكن ذلك الاسم غير معروف أو غير مستخدم في اليمن . فالنقوش اليمنية تمضي في استخدام لفظة «سهرتن» اسما لتلك المنطقة حتى ما يدخل منها في عسير التي تعدها من المناطق الشامية او الشمالية (شامة في النقوش) . اما تقسيم تهامة الى تهامة الشام وتهامة اليمن فقد يكون متأخرا جاء مع تعميم اسم تهامة .

ثم هل ظلت تهامة اليمن ، وفيها الاشاعر وعك وحكم منذ القدم ، خارجة عن طاعة التبابعة حتى عهد أبكرب أسعد ؟

تصعب الاجابة على السؤال . . فوعورة تلك المنطقة تسمح باستمرار الشغب فيها ، وكان قائما فيها قروناً بعد ظهور الاسلام ، أو لعله تجدد فيها بعد ان ضعفت قبضة التبابعة .

ولكن ماذا لو ان «طـوداً» كانت اسماً لمناطق معينة من السراة خاصة ان لفظ «سراة» لم يعرف بتلك الصيغة في النقوش . ان لدينا من الهمداني عبارة أرض طود(٧) فهل كانت تلك الارض في القديم هي التي تعرف اليوم بعسير . كلها أو جزءاً منها ؟

لاشك ان عسير تشكل امتدادا طبيعيا لمرتفعات اليمن الغربية ، بل إن مرتفعات الحجاز المتفرقة يمكن اعتبارها ، من نفس المنظور ، امتدادا آخر . وهذا ما فعله الجغرافيون أمثال الهمداني . ومع ذلك فإن المرء ليلاحظ اضطرابا في تفسير اسم الحجاز إذ يقال إنه سمي حجازاً لانه يحجز بين اليمن والشام ، كما يقال انه سمي كذلك لانه يحجز تهامة عن نجد ، فبأي التعليلين نأخذ ؟

هنا يحسن بنا ان نشير إلى رأي أورده الاخباريون عن أصل معد وأنها كانت في قديم عهدها مجتمعة كلها في تهامة . ولا يمكن لها ان تجتمع - إذا صح الخبر - إلا في الغور المواجه للحجاز ونجد . ولقد اثبتت المقارنات بين اخبار الاخباريين وما يقابلها أو يتصل بها في النصوص النقشية بأنه لا يجوز لنا ان نصرف تلك الأخبار على انها أوهام وأساطير فان كثيرا مما لوته وعوجته الالسن وهي تتناقله وقيده الاخباريون على علاته لا يمكن ان يستقيم لنا الا اذا عرضناه على

النصوص النقشية . كما ان بعض ما استغلق علينا فهمه في لغة النقوش واخبارها لا يمكن ان ينجلي لنا الا اذا ضاهيناه بما يتصل به من أخبار في التراث .

ويبقى امامنا سؤال ، وهو : هل كان اسم تهامة معدي الاصل اطلقه المعديون على الجزء المجاور لهم من الساحل الغربي دون غيره ، وهو الساحل الذي يدخل امتداده الطبيعي في الجنوب (اليمن) تحت اسم سهرتن اليمني القديم[٨] ؟ هذا احتمال أقل ما يقال فيه أنه قوي .

إن إطلاق اسم حجاز على امتداد جبال السراه في ذلك الموضع من ديار المعديين لدليل على اختلاف التسميات للمناطق المتصلة التي اوجدتها ظاهرة طبيعية واحدة . وهو اختلاف لهجوي محض كغيره من الاختلافات اللهجوية التي تنشأ في اللغة ذات الأصل الواحد نتيجة أوضاع جغرافية .

وبعد فان كل ما تقدم إنما يرجح أن الأعراب الذين ذكروا في اللقب هم أعراب كل أو بعض المرتفعات الغربية مهما كانت تسمياتها القديمة والحديثة والأغوار المحاذية لها .

إنه لا غبار على أن يقول اللقب الملكي بأن الملك الذي يحمله ملك لسبأ ولذي ريدان (حمير) ، ولحضرموت ، وليمنه ، ولأعرابه (أي التابعين للملك) في الطود وتهامة . فالأعراب الخاضعون

لمملكة مافي اليمن كانوا يوصفون أحياناً بأنهم أعراب الملك كما في عبارة أعرب ملك سبأ ، ولكن الأعراب الخاضعين لمملكة ما يوصفون أيضا بأنهم أعرابها مضافون الى اسم القبيلة التي قامت حولها وعلى يدها المملكة وحملت اسمها كما في عبارة أعرب حضرموت .

بل إن لقب كبير الأعراب قائد الجيش البدوي الحميري جاء فيه بعد ذكر بعض القبائل البدوية الهامة باسمائها (كندة ومذحج الخ) عبارة وأعرب سبأ وحمير (ذي ريدان) وحضرموت ويمنه ، وهي مجمل الأجزاء/ الجماعات التي كان يظلها ظل التبابعة .

فلماذا لا تكون «هم» في أعرابهم عائدة على سبأ وذي ريدان (حمير) وحضرموت ويمنه ؟ وبذلك يكون أولئك الاعراب من البدو الذين ظلوا كلهم أو بعضهم متمردين على التبابعة في الاجزاء الوعرة من المناطق التي قام فيها حكمهم ، منذ ايام شمر يهرعش ، بما فيها اجزاء «سهرتن» في شامة .

وبهذا يكون ما حققه ابكرب وعبر عنه بالإضافة المذكورة هو اكمال السيطرة على أعراب المرتفعات بإخضاعه من تبقى من أعراب مشاغبين في السراة ومنحدراتها الغربية . وتعقب أمثالهم في تهامة الحجاز . وهذا اذا صح فانما يؤيد ويفسر ما قيل عن وصوله إلى مكة ، ومكة في بعض الآراء تهامية !

ويكون ابكرب ، في نهاية الأمر ، الملك الذي قضى على كل تمرد داخلي أو قريب من اراضيه مما زاد في حريته وحرية خلفائه في الحركة فتوغلوا في قلب شبه الجزيرة حيث قام تحت ظلهم حكم كندة في معد . وهذا هو الذي اكسبه واكسبهم تلك الشهرة التي نلمسها في كتب الاخباريين بما فيها من اقاصيص تتسم بالمبالغة ولكنها لا تخلو من أساس .

إن تطور اللقب الملكي وخاصة خلال القرون الستة الأولى للميلاد ليعكس الخطوات التي أدت الى المزيد من التقارب بين سكان هذه الجزيرة قاصيهم ودانيهم الأمر الذي مهد للدور الذي قام به العرب في الإسلام .

هوامش

١) يذكر بليني (٢٣ ـ ٧٩م) الميناء التابع للملوك الحميريين من ظفار باسم (Muza) الذي ترجمه البعض الى المخا اجتهاداً . ولكن لعل المقصود هو موزع إذ لدينا موقع بهذا الاسم يبعد عن البحر قليلا ربما كان له صلة بالميناء القديم .

٢) «يمنه الحلقة المفقودة في سلسلة اللقب الملكي الحميري» في كتاب يضم مجموعة مقالات لعدد من الباحثين ، مهدى الى العالمة النمساوية ماريا هوفنر تحت عنوان الهدهد صدر في جراتز عام ١٩٨٠م .

٣) ورقة ، قدمت إلى الندوة التي اقامتها جامعة اليرموك (ديسمبر ٨٤) بمناسبة مرور عام على وفاة المرحوم الاستاذ الدكتور محمود علي الغول ، بعنوان : أبرهة تبعاً (قيد النشر ضمن وثائق الندوة) .

٤) المرجع المذكور في الهامش (٢) أعلاه .

٥) ROBIN, Chr. et BAFAQIH, M., Inscriptions Inédites du Mahram Bilqis (Marib) au Musée de Bayhà, dans Raydàn 3, 3, 1980, (BR- Bayhàn 5. pl 4 a et b) p. 101- 105.

٦) انظر مقال (اليزنيون . . .) هنا وهامش رقم (٩) في آخر المقال نفسه .

٧) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، تحقيق القاضي محمد علي الأكوع ، الرياض ١٩٧٤م ، ص ١١٨ و ٢٥٧ و ٣٧١ .

٨) سهرتن معرفة وسهرتم منكرة إسم يطلق في النقوش على المنحدرات الغربية لجبال السراه شاملا السهل الذي يفصلها عن البحر الأحمر والمعروف اليوم باسم تهامة . وقد ذهب بعض العلماء الى انها المقابل للفظ السراة عند الهمداني . وقد تعرضنا لذلك بتفصيل في :

Le Yemen à la période des rois de Sabà et de du Raydàn, Thèse presenté en vue de Doctrat d'Etat es Lettres and Sciences Humaines (Histoire), Université de Paris, Sorbonn- Paris IV, 1983 (2. VI. 3, A, B, and C) et cartes no. 9 and 10.

٣

بنو جرة وبنو ذرانح بين سبأ وحمير

بنو ذرانح وبنو جرة سلالتان من السلالات القيلية القديمة في الهضبة اليمنية الغربية أو نجد اليمن كما يسميها الهمداني .

١) ذمري بين بني ذرانح وبني جرة :

وأقدم النقوش المعروفة التي يرد فيها ذكر لبني ذرانح هما النقشان (جام ٦٢٩) و (الإرياني ٥) وكلاهما من عهد سعد شمس أسرع وابنه مرثد يهحمد ملِكَيْ سبأ وذي ريدان . ومن النقش الأول نعلم أن (القيل شراحيل بن ذرانح) كان بين الأقيال الذين رابطوا في الرحبة فيما كان سعد شمس وابنه يقودان خميس سبأ وقوات الأقيال في حرب مع التحالف المشرقي الذي كان يضم حضرموت وقتبان ، وردمان وخولان ومضحى . ويؤكد النقش الثاني ، وهو نقش للقيل شراحيل نفسه ، ما نعرفه عن معارك الملكين . على ان الذي يعنينا منه هو ما يقرره من أن بني ذرانح كانوا حينها أقيالا لذمري التي كانت من قبل تابعة لسعد شمس وابنه مرثد حين كانا

قيلين ...رتيين في ظل (الي شرح يحضب) (الأول) ملك سبأ وذي ريدان ، هذا بالإضافة إلى أن شراحيل يذكر في ابتهالاته عثترعززن (= العزيز) صاحب جبل كنن (إله بني جرة وأتباعهم) الى جانب عثتر عززن ذي جأب وصاحب المحرم ذي طرر (إله بني ذرانح وأتباعهم كما نتصور) (ق الإرياني ٤٠) .

٢) بنو جرة وسمهر :

على أن قيالة بني جره لذمري أيام سعد شمس تبدو أمرا طارئاً فهي لم تذكر في عهد كرب إل بين ملك سبأ وذي ريدان بن ذمار علي ذرح (من ملوك القرن الأول الميلادي) حين كان أحد كبار أعوان الملك، إن لم يكن أكبرهم ، شخصاً يدعى نشأ كرب بن جرة أقيال سمهر (جام ٦٤٣+٦٤٣ مكرر) . وسمهر هو الشعب الأساسي الذي كان بنو جرة أقياله في كل نقوشهم التي ذكرت ذمري والتي لم تذكرها .

وقد تولى (نشأ كرب) هذا ، بتفويض ملكي ، إجراء مفاوضات صعبة مع «يدع إل» ملك حضرموت الذي جاء بقوات كبيرة إلى الجوف ، ثم شارك (أي نشأ كرب) بدور قيادي في الحرب التي نشأت بين المملكتين بعد فشل تلك المفاوضات .

أما من أيام «يهقم بن ذمار علي ذرح» ملك سبأ وذي ريدان فإنا لا نملك ذكراً لجرة . ولكنا نفترض أنها شاركت في الحرب ضد

شعوب ذي ريدان في أراضيهم التي كانت تمتد شرقاً حتى يافع (النقش رويان - برون : بني بكر ١) . وفي ذلك العهد بلغت الأحوال في سبأ حداً من الاضطراب شجع شعب شداد وبعض من كان معهم من شذاذ الآفاق على اقتحام القصر «سلحين» بمأرب في غيبة الملك الذي كان وقتها بصنعاء . (جام ٦٤٤) .

٣) بنو جرة وذمري :

ولكن حين تخلى السبئيون بعد ذلك عن لقب ملك سبأ وذي ريدان وعاد نشأ كرب (الأول) بن ذمار علي ذرح الى اللقب البسيط «ملك سبأ» فإنا نراه محاطاً ببني جرة أقيال ذمري وشعبهم سمهر . وهذا - في اعتقادنا - هو أقدم ذكر نقشي معروف لذمري .

ولقد حار العلماء طويلاً في أمر نشأ كرب واتخاذه اللقب البسيط مع أن مؤشرات كثيرة تدل على أنه ينتمي إلى فترة ملوك سبأ وذي ريدان . وكان من بين افتراضاتهم الوجيهة القول بأنه من بني جرة على الرغم من انتسابه إلى ذمار علي ذرح . ونحن ، من جانبنا ، نميل إلى الاعتقاد بأنه نفس القيل المعاصر لكرب إل بين (أعلاه) .

وإذا صح ذلك فإن انتساب نشأ كرب إلى ذمار علي ذرح لن يكون إلا من قبيل استكمال مظاهر الشرعية لحكمه كما فعل آخرون بعده في مراحل لاحقة . وذمار علي (الأب) ملك من ملوك السلالة التقليدية في سبأ حتى لو لم تصل إلينا شواهد على توليه الملك ،

فإسمه يحمل سمات الملوكية حسب القاعدة المتبعة في العصر العتيق[١] .

وهذا يبدو استطراداً ، وهو كذلك ، ولكن ليس فيه خروج عن الموضوع ويدونه لا سبيل إلى فهم أوضاع بني جرة وسمهر وذمري وبني ذرانح وذمر وقشم .

لقد نافح نشأ كرب عن الكيان السبئي مرموزاً إليه في نقوشه ونقوش أتباعه بالقصر سلحين .

ففي وجه من كان تحركه ذاك أو منافحته تلك التي كانت ذات وجهين عسكري وسلمي (جام ٥٥٩ و ٥٦١)؟

الجواب ، كما نرجح ، هو في وجه بني ذي ريدان وشعوبهم شعوب ذي ريدان التي عرفت أيضاً باسم حمير[٢] فقد استغل بنو ذي ريدان بعد طول استكانة وخضوع للهيمنة السبئية ،[٣] ما كانت تواجهه سبأ من عداء حضرمي فثاروا بل وزحفوا على النصف الجنوبي من نجد اليمن حتى بلغوا ضاف جنوب نقيل يسلح مباشرة . . وعندها اتخذ ياسر يهصدق لقب «ملك سبأ وذي ريدان» (م ٤١) . ولعله كاد أن يبلغ مأرب ، ليتسلم عرش السلالة الحاكمة التقليدية في سبأ ، لولا أن صمد في وجهه بنو جرة الذين تقع أراضيهم شمال نقيل يسلح مباشرة .

ويبدو أن انحسار النفوذ السبئي من النصف الجنوبي للهضبة لم يشمل أراضي ذمري القريبة من أراضي سمهر . ومن هنا جاءت

إضافة ذمري إلى سمهر كمقولة (أي مقاطعة قيلية) تابعة لبني جرة . ولعل ذلك كان أحد المكاسب الخاصة التي حققوها من مقاومتهم للمد الحميري .

٤) حرب حمير :

ثم لم تلبث سحب الحروب أن تجمعت في سماء المشرق من جديد فكان الصدام بين جبهة حضرموت وولدعم من طرف[٤] وسبأ من الطرف الآخر . وبمرور الوقت وانهماك سبأ في معاركها تلك تحرك بنو ذي ريدان مرة اخرى فقام ما وصف بضر حمير (م) أي حرب حمير (م ١٤٠) .

٥) بنو الصوار وجرة :

ولقد تمخضت تلك الحروب ، على ما يبدو ، عن قيام سلالة ملكية جديدة في سبأ هي تلك التي يصفها الإخباريون ببني الصوار والتي كان منها (إن لم يكن هو مؤسسها) «الي شرح يحضب» (الأول)[٥] الذي استأنف اتخاذ لقب ملك سبأ وذي ريدان ، ولم يكن عمله ذاك ادعاءً فارغاً بل لابد أنه حقق بعض المكاسب على حساب حمير .

أياً كانت حقيقة الأمر فالذي يعنينا ، بل والثابت أيضاً ، هو أن القيلين سعد شمس أسرع وابنه مرثد يهحمد بني جرةأقيال ذمري شعبهم سمهر كان لهما دور متميز في العهد الجديد كما يظهر من

بعض معطيات النقوش ومنها :

(أ) ان «إلي شرح» تعهد نيابة عن القيلين بتقديم قربان من أجل أن يرعاهما «المقه» . وقد رأى البعض في ذلك العمل ما يدل على تبنيه للقيلين الأب والابن ، وليس هناك ما يبرر مثل ذلك الرأي ، فالأمر لا يتجاوز نيابة شخص (وإن كان في هذه الحالة هو الملك شخصياً) عن آخرين في القيام بطقوس دينية . ولعله قد اضطر إلى ذلك وهما غائبان في مهمة صعبة بأمره (قد تكون عسكرية) في موضع بعيد عن مأرب . ولكن النقش زبر بعد عودتهما سالمين وتقديمهما القربان بنفسيهما وفاء بالنذر (جام ٥٦٨) . ومع ذلك فإن نيابة الملك عن القيلين في الارتباط بالنذر تكفي لتصوير ما كانا يتمتعان به من مركز مرموق في عهده . .

(ب) إن القيلين نفسيهما عبرا في نقش آخر (جام ٨٥٣) ، يتصل بقربان أيضاً ، عن ولائهما لملوك سبأ دون تحديد . وقد أثار ذلك العمل التخرصات ، ولكنه لا يمكن أن يعني أكثر من إعلان أو تأكيد الولاء لملوك سبأ(٦) ذلك الولاء الذي كان من اسبابه ما كانا يتمتعان به من مركز .

٦) قيل يصبح ملكاً :

وقد ظل سعد شمس وابنه مرثد قيلين ، بعد وفاة الي شرح ، أيام حكم ابنه وتار الذي يبدو أنه واجه ظروفاً قاسية

وتحديات منها تمرد خولان الجديدة في صعدة مرتين (جام ٦٠١) .

وفجأة يظهر سعد شمس وابنه ملكين في سبأ منتسبين إلى «الي شرح يحضب» . ولعلهما فعلا ذلك اتباعاً للقاعدة التي انتسب على أساسها نشأ كرب إلى ذمار علي ذرح (أعلاه) . ولكنهما افتتحا في نفس الوقت تقليداً جديداً هو تكرار ذكر اللقب الملكي بعد اسم الأب وهو تقليد استمر حتى النهاية[٧] .

٧) التفاف ذوي الشأن في سبأ حول سعد شمس :

ولقد ولي سعد شمس وابنه العرش باختيار أو دعم من كل ذوي الشأن في سبأ وهم بالترتيب الأسبوء فالأقيال فالخميس[٨] بشاهد اشتراكهم جميعا ، تحت قيادتهما ، في الحرب ضد التحالف المشرقي الذي أطل برأسه من جديد (جام ٦٢٩) . وحين كان الجانب الرئيسي من القوات السبئية في المشرق في أراضي ردمان وقتبان وأوسان فان أقيال سمعي[٩] وقيل ريدة البكيلية آنذاك ، ومعهم شراحيل بن ذرانح كما تقدم ، تولوا المرابطة في الرحبة تحسباً من مفاجآت من ناحية الجبهة الحميرية ، إلا أن تلك الجبهة ظلت هادئة .

٨) حرب شاملة :

ولكن لم يمض وقت طويل حتى تفجر الموقف مجدداً ليصبح حرباً شاملة على الأرض اليمنية كلها ـ حرباً لم تنته إلا بعد أن توسط

القيل يريم أيمن بن همدان بين المحاربين ونجح في وساطته (م ٣١٥).

ولاشك أن وساطة يريم ، الذي كان من قبل بين المرابطين في الرحبة ، تثير الكثير من التساؤلات حول موقف حاشد التابعة لبني همدان (بل وربما موقف سمعي بأكملها) من تلك الحرب الشاملة ، إذ كيف يتسنى لقيل سبئي أن يتوسط في حرب كانت سبأ طرفاً فيها ؟

إنها تساؤلات قائمة قد نجد الرد عليها ، أو ما يعين على الرد ، في الحالة التي نشأت بعد ذلك .

٩) خلاف داخل سبأ :

وبعد تلك الحرب الشاملة وصل ذمار علي يهبر وابنه ثاران ملكا سبأ وذي ريدان (من بني ذي ريدان) إلى مأرب نتيجة لانحياز بعض أقيال سبأ إليهما (الارياني ٦ مثلا) .

ولكنهما لم ينعما بالإقامة طويلا في سلحين ، فقد تصدت لهما سمعي بأجمعها (بما فيها حاشد وأقيالها بنو همدان) تحت قيادة وهب إل يحوز . واستؤنفت الحرب وكانت مريرة مليئة بالمفاجآت وفي مقدمتها ان سعد شمس وابنه مرثد عادا الى حالة القيالة ولكن في صف ذمار علي الحميري ، أي أن بني جرة الذين أعلنوا من قبل ولاءهم للملوك

سبأ وحرصهم على بقاء الكيان السبئي ورفضوا طويلا سيادة بني ذي ريدان قبلوا في هذه المرة بتلك السيادة .

لماذا وكيف حدث ذلك ؟

لا نملك تفاصيل كافية في النقوش المعروفة لنصوغ منها جواباً كاملا . ولكن رواية من روايات الاخباريين وأهل السير والأنساب ربما تلقي بعض الضوء على ذلك التطور - رواية أوردها شارح قصيدة نشوان بن سعيد الحميري تتحدث عن عدم ثبات أقدام وتار (ابن الي شرح) في الحكم والاختلاف على ولاية العرش بين الفرقاء المعنيين بالأمر ثم الاتفاق على حل يحول دون الصدام - حل مؤقت ينتهي بعودة ملك إلى مرتبة القيالة عند بلوغ الوارث الشرعي اشده[١٠] .

١٠) المرحلة البتعية - الهمدانية :

وكما عاد نشأ كرب (الأول) ، بعد صموده في وجه الزحف الحميري ، الى اللقب البسيط «ملك سبأ» فان وهب إل يحوز حين وصل الى سلحين بأثر حربه مع ذمار علي (الإرياني ٩) عاد ، هو الآخر ، الى اللقب البسبط . وافتتح هذه المرة عهداً جديداً ربما أمكن اعتباره من بعض النواحي ، امتداداً لحكم بني الصوار[١١] .

ولا ندري ماذا كان موقف بني جرة ومعهم بنو ذرانح بعد وصول وهب إل إلى العرش فليس بين أيدينا أي نقش يشير إليهم .

ولكنا نعلم أن نجاح سمعي في الحيلولة دون وصول بني ذي ريدان إلى عرش سبأ لم يكن نهاية متاعب السبئيين .

فحضرموت واصلت زحفها غرباً بعد تلك الحروب واكتسحت قتبان . وكان النشاط التجاري في موانيها مزدهراً ،[12] أما حمير التي عجزت عن حكم سبأ كلها فانها كانت رغم ذلك ، تمر بأعلى فترات ازدهارها ، بل إن تلك هي الفترة التي وصفت فيها بأنها الدول التي أصبحت الأولى في بلاد العرب[13] .

كانت سبأ ما زالت ، وظلت طويلاً بعد ذلك، تتحكم في منافذ الطرق البرية نحو الشمال ، ولكن النشاط التجاري في الموانىء كان قد بلغ أوجه وكان الحميريون يحتكرون التجارة مع بلاد الزنج[14] ولم يكن لميناء عدولي الحبشي إلا نصيب محدود من التجارة الأفريقية[15] .

وهكذا يمكن تلخيص الوضع السياسي ـ الاقتصادي في المنطقة آنذاك بأنه يتمثل في قيام ثلاث قوى صاعدة هي : حضرموت وحمير واكسوم ، وكلها قوى بحرية متنافسة ، شاءت أم أبت .

أما سبأ فقد اصبحت أو كادت تصبح قوة محاصرة في أراضيها البرية محرومة من عائدات المواني والتجارة البحرية ، وأكثر من ذلك فإن حمير ، التي كانت قد جربت إمكان إستمالة بعض أطراف سبأ

إليها ، ظلت تواصل الضغط على السبئيين خاصة في مغارب أراضيهم .

ولهذا فإن كرب إل وتر يهنعم ملك سبأ بن وهب إل يحوز ملك سبأ لم ينعم بالراحة (جام ٥٦٤) ، كما أن أخاه (؟) انمار جاء إلى الحكم في ظروف استثنائية (جام ٥٦٢) .

ولعل ذلك كله كان من أسباب وصول يريم أيمن ، القيل الهمداني ، إلى العرش وقيام ما يمكن وصفه بالمرحلة البتعية الهمدانية[١٦] .

١١) أسرة يريم أيمن :

وفي ظل أسرة يريم أيمن وخاصة في عهد ابنه علهان نهفان انتهجت سبأ سياسة التحالفات (م ٣٠٨) لمواجهة ضغوط حمير عليها .

فحالفت حضرموت أولا ، وقد أصبحت أراضيها مجاورة لها نتيجة ضمها لقتبان . وكان ذلك التحالف مرغوباً فيه من حضرموت المتطلعة إلى الحصول على موضع قدم في الهضبة الغربية على حدود حمير .

ثم لم تلبث اكسوم ايام ملكها «جدرت» أن سعت ، من وراء البحر ، الى الانضمام الى الحلف لنفس الأسباب التي دفعت حضرموت إلى الترحيب بالتحالف مع سبأ .

وتمخض الحلف ، الذي أصبح ثلاثياً عن حرب ضد حمير (نامي ١٣ ـ ١٤) لابد انها الحقت بها أضرارا لا يستهان بها ، على أن أهم النتائج لتلك الحرب هي :

- وصول حضرموت إلى ردمان[١٧] .
- وتوطيد أقدام الأحباش في تهامة[١٨] .

١٢) شعر أوتر وخميساه السبئي والحميري :

وهكذا حين ولي شعر أوتر العرش بعد أبيه علهان كان الوضع بالغ التعقيد . ولعل من بين تعقيداته أن حضرموت حليفة سبأ كانت تربطها في أول عهد ملكها إلعزيلط صلات حسنة بحمير التي كان يحكمها ثاران يعب يهنعم (ف ٤٩٠٩) .

كان شعر أوتر قد استهل عهده متخذاً لقب ملك سبأ كأسلافه ، ثم أضاف إليه بعد ذلك عبارة «وذي ريدان» وكان تحت إمرته خميسان أحدهما سبئي والآخر حميري . وهذا لا يمكن تفسيره إلا بأنه أخضع حمير[١٩] .

ولقد ظلت العلاقات السبئية ـ الحضرمية حسنة بل ومتينة[٢٠] حتى قيام شعر أوتر بمباغتة إلعزيلط وأسره في ذات غيل ثم تدميره لشبوة ، عاصمة حضرموت ، وقنا ميناثها (الإرياني ١٣) . وكان ذلك ، أغلب الظن ، سعياً من سبأ (ومن ورائها حمير) إلى إضعاف حضرموت أو الوصول إلى البحر العربي .

ثم تغيرت الأحوال كثيراً بعد شعر أوتر أو ربما منذ أخريات أيامه[٢١] .

فالأحباش انتشروا في تهامة وفي المعافر ، التي مال اليهم أهلها ، وكادوا أن يحتلوا ظفار أيام (لعزم يهنف) يهصدق (جام ٦٣١) ، بل إن نشاطهم لم يقتصر على تهامة التي كان أهلها ممالئين لهم ويتحرشون بكل من سبأ وحمير معاً ، فلم يكن يكفيهم أن يتحكموا في تجارة البحر الأحمر كلها من خلال سيطرتهم على البرين العربي والافريقي ـ تلك السيطرة التي جعلتهم إحدى قوى رئيسية ثلاث في العالم في القرن الثالث ، وإنما كانوا يطمعون في التحكم في طرق القوافل البرية أيضاً ، أي أنهم كانوا يهدفون إلى تطويق التجارة اليمنية كلها ولكنهم لم يفلحوا[٢٢] .

وتدهورت الأوضاع في سبأ بعد شعر أوتر حتى أن (فرع ينهب) الذي جاء بعد (لحيعث يرخم) (جام ٦٣١) عاد إلى اللقب البسيط «ملك سبأ» ، ومثل ذلك عندما كان يحدث في سبأ خلال الفترة إنما يعكس نكسة تعرض لها السبئيون[٢٣] .

١٣) بنو جرة وبنو ذرانح وجها لوجه :

وعندما جاء الي شرح يحضب (الثاني) وأخوه يأزل بيّن ، ملكا سبأ وذي ريدان ، ابنا فرع ينهب ملك سبأ ، إلى العرش كان نظيرهما في حمير هو (شمر يهحمد) ملك سبأ وذي ريدان أيضا والذي بدأ عهده ـ أغلب الظن ـ في وقت أبيهما .

وفي أيام شمر هذا امتد نفوذ حمير إلى ردمان التي يفترض أنها خرجت من يد حضرموت عندما وجه اليها (شعر) ضربته . لقد عوض بنو ذي ريدان خسارتهم في تهامة والمعافر بالسيطرة على ردمان . واكتملت بذلك سيطرتهم على النصف الجنوبي للهضبة الغربية من ردمان في الشرق إلى ألهان في الغرب وتأكد من جديد الحد الفاصل بينهم وبين سبأ عند نقيل يسلح والنقايل (أو المناقل) الأخرى الموازية له من الجانبين(٢٤) .

حينها كانت ذمري أربعاء (= حلفاء) لسمهر تحت قيالة بني جرة ذي زبنر وتزأد التابعين لسبأ (الإرياني ١٩) . وبالمقابل كانت ذمر أربعاء لقشم تحت قيالة بني ذرانح التابعين لحمير (الإرياني ٤٠) . فقد اقتسمت سبأ وحمير الأرض التي يعبد فيها «عثتر عززن» بعد أن استعاد بنو جره ذمري التي تخلوا عنها أيام شعر أوتر أو بعده مباشرة (جام ٦٣١) .

١٤) بنو ذرانح أقيال قشم (؟) :

ولكن إذا كان موقع تعرمن(٢٥) التي نفترض أنها في أراضي شعب ذمر محادة لأراضي سمهر وذمري فان موقع قشم ، التي اقترنت بها ذمر ، وعلاقتها ببني ذرانح لم يتضحا بعد تماماً .

إن النقوش التي تذكر قشم قليلة جداً ، فهي :

- (م ٣٢٦) من عهد كرب إل وتر يهنعم بن وهب إل يحوز . وفيه نرى قشم وشداد معاً في قتال ضد سبأ .

- (جام ٥٧٦) وهو نقش ملكي من عهد الي شرح يحضب (الثاني) ويذكر خراب تعرمن على أيدي السبئيين (ق الارياني ٤٠) كما يذكر حدوث معارك على حدود قشم .

- (جام ٥٨٦) لأحد أتباع إلي شرح يحضب ويذكر معركة اشترك فيها صاحب النقش ضد قشم في سرعن .

- (الإرياني ٤٠) (لشر حعثت يأمن بن ذرانح) التابع (لشمر يهحمد) ويذكر ترميم أو إعادة بناء مصنعة «تعرمن» بعد أن دمرها حرقاً «إلي شرح يحضب» ملك سبأ (ق جام ٥٧٦) .

- (ف ٤١٩٦) من أيام (ياسر يهنعم) وابنه (شمر يهرعش) في نهاية فترة ملوك سبأ وذي ريدان . أيامها كان بنو ذرانح أقيالا لقشم ومضحى . ولهذا فان اسم الأقيال هو بنو ذرانح وهصبح . ولا ذكر لذمر في هذا النقش ، ولا سبيل في ضوء ما نملكه من وثائق ، إلى معرفة ما آلت إليه ، ولكنا من ناحية اخرى نعرف أن ذمري أيام شمر يهرعش وحيداً على العرش ، أي بعد توحيد كل من سبأ وذي ريدان (الإرياني)١٤) ، كانوا أربعاء سمهر مرة ثانية وكان أقيالهم هم بنو جره وبدش (جام ٦٥٠) .

وهكذا تتأكد الصلة ، مرة أخرى ، بين ذمري وسمهر وهي صلة تقوم أغلب الظن على تجاور الشعبين . ولكن علينا أن نلاحظ

أن أقيالها في هذه المرة لم يحرصوا على ذكر «عثتر عززن» مع أن النقش مقترن بقربان مقدم في محرم المقه بعل أوام بمأرب تماماً كالنقش (الإرياني ٥) .

أما النقش (ف ٤١٩٦) ، الذي نجهل المكان الذي حصل فيه على صورة مضغوطة له ، فقد خلا من أية إشارة دينية .

وهكذا حرمنا من التأكد من اسم المعبود الوثني الخاص بقشم ، أما مضحى فهي ، بلا خلاف ، من ولد عم . وموضعها معروف فحاضرتها القديمة هي حصي التي ظلت قائمة في الإسلام إلى أن حلت محلها مدينة البيضاء[٢٦] وأقيالها كانوا عادة بني هصبح وهو السبب الذي من أجله اتخذ بنو ذرانح ذلك الاسم الى اسمهم الأصلي .

وكل ما يمكن قوله في ظل المعارف الراهنة هو :

١) إن أراضي قشم غير بعيدة عن أراضي ذمر التي هي بدورها غير بعيدة عن أراضي ذمري وسمهر .

٢) إن قشم ربما كانت هي الشعب التابع أساساً لبني ذرانح .

٣) إن الربط بين قشم ومضحى لا يعني بالضرورة أن قشم من ولدعم[٢٧] فالنقوش التي وردت فيها عبارات «ولدعم» أو «كل ولدعم» اقتصرت على ذكر ردمان وخولان الجنوبية ومضحى إلى جانب قتبان .

٤) إن ذكر قشم في النقوش المعروفة. ارتبط دائما بحمير ولم يذكروا في النقوش عند الحديث عن «ولدعم» .

وأخيراً علينا أن نذكر أن بني ذرانح كانوا من الأقيال/ الأذواء أيام أبرهة (م ٥٤١) . ولعل ذلك من أسباب احتفاظ الإخباريين بذكراهم إذ أوردوهم في عداد الأذواء وإن لم يعرفوا عنهم شيئاً يذكر كما نفهم مما وصل إلينا من مؤلفاتهم ، أما قشم فلم يتخلف عنها أي صدى في المصادر العربية الإسلامية ، حتى اسمها زال تماماً ، في حين أن مضحى/ مضحا ذكرت في سلاسل الأنساب . ولم يعرف بنو جرة كأقيال وأذواء ، وإنما عرفت ذو جرة «بطناً عظيماً» ، ينسب إليه (مخلاف) عظيم الشأن .

هوامش

١) انظر بيستون : التسميات في النقوش العربية الجنوبية ، ريدان ١٩٧٨ ص ٥٧ .

٢) هناك تداخل أو تبادل واضح بين عبارتي أشعب (= شعوب) ذي ريدان وأشعب حمير ، انظر :

BAFAQIH, Le Yemen au cours de la periode des rois de Sabà et de dú-Raydań, Thèse presentéen vue de Doctrat d'Etat es

Lettres Sciences Humaines (Histoir), Université de Paris, Sorbonne-paris IV, 1983 (1.1.2.B)

٣) المصدر اعلاه Le Yemen... 3.1.2.A : وبافقيه ـ بيستون ـ روبان ـ الغول مختارات من النقوش اليمنية القديمة (تحت الطبع ، الموجز : (٣-٩)

٤) «ولدعم» صفة تطلق في النقوش على قتبان وردمان وخولان (الجنوبية) ومضحى وذلك لاتحادها جميعا في عبادة «عم» . ومثل ذلك «ولد المقه» بالنسبة لسبأ مأرب وبعض القبائل التي تعبد المقه في سبأ .

(٥) بافقيه : «الحارث الرائش ونسبه المختلف فيه» . مقال في مجموعة تضم مقالات لآخرين (تحت الطبع) .

٦) بافقيه (1.II,2) ... ... Le Yemen

٧) جاء ذلك نتيجة سقوط السلالة الحاكمة التقليدية في سبأ واختفاء التقليد المشار إليه أعلاه هامش (١) .

٨) الخميس في النقوش هو الجيش النظامي الرسمي للدولة والمكون من عدة أسلحة متخصصة وهو يتبع الملك مباشرة وينسب إليه كما ينسب إلى الدولة فيقال خميس سبأ مثلا . . وقد استخدمنا اللفظة كما هي لأنها معروفة في المعاجم . أما الأسبوء) على وزن الأفعول فهي أسبأن في المؤلفات الأخرى ، وتعني السبئيين والمقصود احرارهم أو نبلاؤهم .

٩) سمعي ، التي تكتب عادة سمعاي اجتهاداً وتواصفاً ، تضم قديما حاشد ومركزها ناعط ، وحملان ومركزها حاز ، ويرسم ومركزها غالبا هجر (؟) أو شبام (الغراس) . ويعتبر كل شعب من تلك الشعوب (القبائل؟) ثلثا من سمعي . وقد بقيت حاشد وان تغيرت أوضاعها ، واختفت حُملان قبل أيام الهمداني (انظر صفة جزيرة العرب) ورحلت يرسم شمالا واصبحت في عداد خولان صعدة . . وكانت سمعي كلها متحدة في عبادة تألب ريام وتحتل أراضيها قلب النصف الشمالي من الهضبة الغربية وهي أراض منيعة .

١٠) نشوان بن سعيد الحميري : ملوك حمير وأقيال اليمن ، تحقيق علي بن اسماعيل المؤيد و اسماعيل بن أحمد الجرافي ، ١٣٧٨ هـ ص ٥٦ - ٦٠ .
وبافقيه : Le Yemen..., 3. II. 2A et c.F

١١) نعتقد ان «وهب إل» هو الذي اصبح «موهب إل» في سلسلة النسب الهمداني ، وعن صلة همدان بالصوار ، انظر الهمداني : الإكليل العاشر ص ١١ - ١٢، وبافقيه : Le Yemen... 3. II. 3. A.

١٢) كتاب الطواف حول البحر الأحمر (فقرات ٢٧ - ٢٨ و ٣٠ - ٣٢ و ٣٦) وانظر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ص ١٩١ - ١٩٣ .

١٣) الطواف . . . (فقرة ١٦) .

١٤) الطواف . . . (الفقرات ٢١ - ٢٤) وانظر بافقيه المصدر أعلاه ص ١٩١ .

١٥) الطواف . . . (الفقـرة ٦ و ٧ و ١٧ للمقارنة) .

١٦) بافقيه : Le Yemen... 3.II.3

وبافقيه وآخرون : مختارات . . . (أعلاه) الموجز (٥ - ٣) .

١٧) بافقيه وروبان : أهمية نقوش المعسال ، ريدان ٣، ١٩٨٠م ص ٩ وما بعدها .

١٨) بافقيه وآخرون : مختارات . . . الموجز (٥ - ٧) .

١٩) بافقيه : Le Yemen... 2.III.A.a.5

٢٠) بافقيه وروبان : أهمية . . . . ص ١٥ - ١٦

٢١) بافقيه وآخرون : مختارات . . . الموجز (١٠٦)

٢٢) بافقيه : Le Yemen... 3. III.3.D.

٢٣) بافقيه : Le Yemen... 3.I.3.D.

٢٤) بافقيه وروبان أهمية . . ص ١٨ وتتضمن تصحيح اسم النقيل المجاور ليسلح وهو يجرن وليس يلرن كما قرأه جام ، وذلك استنادا الى (نقش المعسال ٥)

٢٥) مطهر الإرياني : نقش بنت ضبعان . اليمن الجديد ، السنة الثالثة عشرة . العدد السابع . نوفمبر- ديسمبر ١٩٨٤م ص ١٨ .

٢٦) بافقيه ورويان : نقش اصبحي من حصي ، ريدان ٢ ، ١٩٧٩م، ص ١١-١٢.

٢٧) هذا يخالف ما كنا قد ذهبنا اليه في بعض ابحاثنا السابقة . وليلاحظ ايضا ان (قسم) في (الإرياني ١٣) بالسين الثانية هي غير قشم بالشين ، فهذه من شعوب المضبة والأخرى- على ما يظهر من السياق- من سكان المنخفضات حول رملة السبعتين إذ لدينا مثلا بن قسم «صاحب نقش ، باللهجة القتبانية ، وجد في وادي ضرا (ف ٣٨٥٦) .

٤

اليزنيون

وخلفية الأحداث التي قادت الى سقوط حكم الأحباش في اليمن قبيل الاسلام

نحو قراءة جديدة لروايات الإخباريين وغيرهم :

في وقت ما من نحو بداية الربع الأخير من القرن السادس الميلادي تم القضاء على الحكم الحبشي المحلي في اليمن . وقد تحقق ذلك على يد زعيم يزني تؤازره قوة فارسية حملت بحراً إلى اليمن وتختلف الروايات حول اسم ذلك الزعيم اليزني ، فمنها ما يسميه «سيف» ومنها ما يجعله «معد يكرب» بن سيف الخ[1] .

والحق أن أقل ما يمكن قوله في هذا الشأن هو أن الاسم «سيف» ليس من الأسماء الشائعة في اليمن قبل الإسلام إذا رجعنا إلى ما بين أيدينا من نقوش . هذا في حين أن «معد يكرب» لم يكن اسماً دارجاً وحسب وإنما كان أيضاً اسمَ قيلٍ يزني معاصر لأبرهة الملك الحبشي ، وقد ثار عليه ضمن من ثاروا من أمراء المناطق الشرقية من اليمن (المشرق) .

ومالم يكن «سيف» في روايات الإخباريين ابنا لمعد يكرب هذا أو في درجة ابنه فانه من غير المستبعد أن يكون الاسم «سيف» تحويراً للاسم اليمني القديم «سميفع» الذي هو اسم والد معد يكرب الثائر على ابرهة .

وهناك أكثر من سبب للاعتقاد بأن سميفع الوالد هو الأمير الحميري الذي نصبه الأحباش ملكاً على حمير والذي يقول بروكوبيوس : إن بقايا الأحباش في اليمن ثاروا عليه وحاصروه في قلعة واختاروا من بين صفوفهم شخصاً اسمه ابراموس ، هو ابرهة بلا شك ، وولوه مكانه(٢) .

وهذه الصورة وان اختلفت كل الاختلاف عما جاءفي المصادر العربية تبدو أقرب إلى طبيعة الأشياء وتتمتع بدعم المصادر الايبقرافية (أي النقوش) لها . فالثابت من النقوش هو أن ابرهة جاء إلى العرش بعد سميفع الذي ثار على ابرهة واعتصم مع آخرين من أهله بقلعة كدور في أراضيهم بالمشرق حيث اجبروا على الاستسلام واقتيدوا إلى حيث بايعوا ابرهة(٣) .

إننا رغم سكوت الإخباريين المحيّر عن سميفع وحكمه لنرى في قصة من يسمونه «أبامرة الفياض ذايزن» الذي يقولون أن الأشرم (أي ابرهة) انتزع منه زوجته «ريحانة ابنة ذي جده» فخرج من اليمن الخ(٤) تصويراً لما حدث لسميفع على يدي ابرهة ولكن على طريقة أهل الاخبار في تلمس الأسباب الذاتية لتفسير الأحداث . فنحن لا نعرف شيئا مؤكداً عما آل اليه أمر سميفع بعد عزله . والرواية التي تقول بأنه حوصر في قلعة ، وإن كانت تذكرنا باحتماء معد يكرب

وأقاربه بكدور ، لتجعل من الممكن فراره ، أي سميفع ، بعد محاصرته .

وكل هذا يجعل من المحتمل أن يكون معد يكرب بن سميفع هو الأمير (القيل) اليزني الذي استجاش ملك الفرس لاسترجاع العرش كما يستشف من الرواية البديلة التي تستبدل اسم سيف بمعد يكرب .

إن جهلِ الاخباريين بحكم سميفع اشوع الذي لا يكاد يبعد عهده عن زمن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بأكثر من ثلاثة أرباع القرن ليؤكد أن الكثير من أخبار هذه المرحلة القريبة من الاسلام قد ضاع في غمرة الاضطرابات التي عرفها اليمن . حقاً إن أبرهة قد استطاع أن يستعيد للسلطة المركزية هيبتها ولكن الاستقرار الذي تحقق في عهده لا يعدو أن يكون من نوع الهدوء الذي يعقب عاصفة ويسبق أخرى كما سنرى .

لقد استعين بقصة الثأر اليزني في خدمة أهداف متنوعة تغيرت من عصر إلى آخر ، وأنتجت في كل الأحوال أدباً له قيمته الفنية ودلالاته السياسية عن الفترة التي أنتج فيها ، ولكن ذلك لا يقدمنا قيد أنملة في طريق فهم خلفية الأحداث التي أدت إلى قيام وسقوط حكم الأحباش في اليمن قبل الاسلام أو إدراك طبيعة ذلك الحكم .

من هم اليزنيون ؟
ما شأنهم والملك ؟

هل حقاً أن الأحباش اكتسحوا اليمن كلها بقواتهم القادمة من وراء البحر وحدها ؟

هل يعقل أن يكون بقايا الأحباش هم الذين فرضوا أبرهة على العرش ؟

هل يعقل أن يكون سقوط الحكم اليزني بعد أبرهة (أياً كان اسم الملك) بفعل حفنة من الحراس الأحباش ؟

الإجابة على هذه الأسئلة وما تجر إليه من أسئلة أخرى علينا أن نعود إلى الوراء - إلى نقطة تصلح أن تكون بداية .

هذا ما سنحاوله في هذه العجالة معتمدين بالدرجة الأولى على الوثائق الايبقرافية وقد اكتشف منها المزيد في الآونة الأخيرة .

البداية : أذواء صغار

حتى القرن الثالث للميلاد ، الذي تمكن الأحباش خلاله من بسط نفوذهم على تهامة اليمن ما بين نجران وعدن متسللين من بين فروج الخلافات الداخلية المحتدمة آنذاك وأصبحوا طرفاً رئيسياً في حروبه المتشعبة وفي تحالفاته المتقلبة(٥) - حتى ذلك الوقت لا يبدو أن اليزنيين كان لهم شأن يذكر في الأحداث . فإن أقدم ما وصل إلينا من نقوش له صلة بهم لا يتجاوز المراحل الأخيرة من ذلك القرن ، فقد ترك لنا شخص يدعى شهر أو شاهر أسأر بن ربيعة ذو يذأن (بالذال التي تحل محل الزاي في اللهجة الحضرمية آنذاك) توقيعه على صخرة من صخور العقلة الواقعة على مقربة من شبوة عاصمة

حضرموت القديمة[٦] إلى جانب توقيعات أشخاص آخرين ، وذلك حين زار الموقع في ركاب ملكين حضرميين هما الريام يدم ثم أخوه يدع أب غيلان ابنـا يدع إل بين بن ربشمس . وهو ما يخول لنا أن نستنتج أن اليزنيين كانوا وقتذاك أذواءً صغاراً ضمن الفلك الحضرمي لا أكثر ولا أقل . فهم على ما يبدو ، لم يشتركوا ، على سبيل المثال ، في معارك أسرة يدع إل بين ضد الحميريين في حين أن أذواء صغاراً آخرين ومقاتلين من نفس المنطقة التي تعرف بالمشرق اشتركوا فيها[٧] .

وفي نحو نهاية القرن الثالث ، بعيد توصل بني ذي ريدان الملوك الحميريين إلى توحيد كل من سبأ وحمير قام شمريهرعش بخطوة هامة كان من نتائجها القضاء على التناقضات المحلية التي كانت سبباً في الخلافات والحروب التي تقدم ذكرها . تلك الخطوة هي العمل على ضم حضرموت . وفي سبيل ذلك اتخذ شمر يهرعش ، كعادة العصر ، إضافة جديدة إلى اللقب الملكي الذي كان «ملك سبأ وذي ريدان» وأصبح «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنه»[٨]

على ان عملية إخضاع حضرموت هذه استغرقت جانباً من بداية القرن الرابع . فبعد إحكام سيطرة الحميريين على شبوة العاصمة أيام «شمر يهرعش» انتقلت المقاومة إلى المناطق الداخلية وخاصة وادي حضرموت الكبير .

وقد لجأ الملوك الذين جاؤوا بعد شمر يهرعش إلى الاعتماد على جيش الأعراب لاستكمال السيطرة على حضرموت . وهو الجيش الذي ضم شتات الجيوش البدوية غير النظامية للممالك اليمنية قبل انتصار حمير وعناصر جديدة من قبائل المناطق الشمالية المجاورة خاصة كندة ومذحج . وعهد بقيادة ذلك الجيش إلى واحد من بني جدن الذين اقترن اسمهم باليزنيين في مرحلة لاحقة . ولدينا نصوص ايبقرافية (نقوش) تصف عملية تطهير جيوب المقاومة الحضرمية ، وهي جيوب انتشرت في كل المواقع والمدن الهامة من ذلك الوادي .

وحتى ذلك الوقت لا يبدو أنه قد أصبح لليزنيين شأن يذكر .

ملشان وبنوه : بداية الصعود

ولكن ما إن استقرت الأوضاع في حضرموت واستتب الأمر للحميريين خلال نفس القرن حتى بدأ بزوغ نجم اليزنيين . هذا ما يوحي به نقش كبير وهام اكتشف حديثا في أنحاء وادي عبدان بمحافظة شبوة .

نقش عبدان الكبير هذا عبارة عن سجل لوقائع حياة الأسرة اليزنية خلال جيلين على الأقل : فمنه نعلم أن عميدها حينذاك ، واسمه ملشان ، تولى كما تولى أبناؤه معه وبعده قيادة حملات واسعة داخل اليمن ، خاصة في مناطق السراة وتهامة التي دأبت على

الشعب وأرض المهرة البعيدة عن مركز الحكم ، وخارج اليمن في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة خاصة في ما كان يعرف باليمامة وأطراف نجد والبحرين بمدلولها الواسع القديم(٩) .

إن هذا ليدل على أن اليزنيين كانوا رأس الحربة في الاندفاع الحميري نحو قلب شبه الجزيرة ، وهي السياسة الجديدة التي اختطوها بعد فك الارتباط العدائي بينهم وبين الأحباش وبعد أن وحدوا اليمن كله تحت رايتهم واستحق ملوكهم من اجل ذلك ـ كما يظهر ـ لقب تبّع . ولاشك أن إخماد الفتن الداخلية قد أطلق أيديهم وساعد على تجميع قواهم . ولكن هذا لم يكن ، كما نعتقد السبب الوحيد لذلك الاندفاع نحو الداخل فنحن نلاحظ بهذا الصدد أن اندفاعاً نحو الداخل في افريقيا قد حدث في اكسوم في نفس الوقت . ولا يستبعد أن تكون العوامل والأسباب وراء السياستين المتشابهتين في البرين المتقابلين واحدة أو متشابهة . فنحن هنا أمام تحول في سياسات القوى المحيطة بالبحر الأحمر جاء بعد صراع طويل بينها كان هدفه السيطرة على تجارة ذلك البحر . ولابد أن عوامل اقتصادية جديدة لها صلة بحركة التجارة في المنطقة وراء ذلك التحول .

مهما يكن من أمر فان أحداث القرن الرابع التي يلقي عليها النقش الجديد ضوءاً قد عجلت بتنامي قوة اليزنيين . يكفي أن نلقي نظرة سريعة على ما فاءت به عليهم من غنائم يعددها النقش المذكور

لنتصور ذلك . كما أن نفس الأحداث مهدت - كما نعتقد - لقيام مرحلة جديدة في التاريخ اليمني خاصة أو العربي عامة . هذه هي المرحلة التي تبدأ بعهد أبي كرب أسعد الذي اعتلى العرش في نحو مطلع القرن الخامس حاملاً نفس اللقب الذي بدأه شمريهرعش ثم لم يلبث أن أحدث اضافة جديدة إليه فأصبح «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنه وأعرابهم طوداً وتهامة» . وهو ما يعكس حتماً امتداداً جديداً لنفوذ الحميريين في مناطق الأعراب له صلة بنشاطهم العسكري الذي سجل لنا نقش عبدان الكبير بداياته .

ليس في ما بين أيدينا من نقوش قليلة من القرن الخامس ما يشير صراحة إلى مشاركة يزنية في الشؤون العامة للدولة . وإذا رجعنا إلى أهل الأخبار نجد أن الهمداني ، في تناوله لنسب آل ذي يزن ، يقرر أن ذا يزن «أحد أقوال (أي أقيال) حمير العظماء ، وأن بعض حمير يقول : «إنه كان على ابنة أسعد تبّع[١٠] ، ومع أنه من الصعب علينا التثبت من حقيقة مثل هذا الزعم فان دلالته العامة من حيث احتفاظ اليزنيين ، في ظل أسرة أبي كرب أسعد ، بمكانتهم قد يكون لها أساس . ولدينا نقش يزني ، نعلم بثقة أنه يعود إلى هذه الفترة ويأتي - فيما يظهر - من مكان يقع إلى الشرق من قرية لماطر في وادي حبان ، وفيه يتحدث أصحابه عن أعمال ري كبيرة قاموا بها في وادي عماقين (الذي يعد مع عبدان وجردان من أودية المشرق) الذي يصفونه بأنه واديهم (سرهم) ، وهو الوادي الذي يلتقي بعد

عزّان بوادي حبان ليشكلا معاً في امتدادهما نحو البحر وادي ميفعة الذي تقع إلى جواره مدينة قديمة كانت تحمل نفس الاسم وتعرف خرائبها اليوم بنقب الهجر ، ويدل موقعها على أنها لعبت دوراً في تجارة السلع القادمة عن طريق البحر .

وعلى الرغم من أن معارفنا عن الجانب الأكبر من النصف الثاني من القرن الخامس مازالت عائمة غائمة فإن كل شيء يدل على استمرار اهتمام الحميريين بداخل شبه الجزيرة . ولعلهم لم يكونوا بعيدين عن نجاح أسرة حجر بن عمرو آكل المراد الكندية في بسط نفوذها على قبائل معدية في مناطق موغلة في الشمال(١١) .

اليزنيون ـ الجدنيون

لقد كان نظام الحكم والادارة القديمين في اليمن ، قبل الاسلام ولعدة قرون ترجع بدايتها إلى ما قبل عصر الميلاد ، هو نظام القيالة . وهو نظام يمني وليد ظروف اليمن الخاصة ، ليس بالاقطاعي ولكنه شبيه به . وفيه تقاسم النفوذ في المملكة الواحدة أقيال وزعماء في مستواهم يعرفون بالأذواء . ويدينون بالولاء لملك واحد أو لأسرة ملكية واحدة في نظام كونفدرالي يكون فيه القيل في أرضه حاكماً له كل مظاهر الملك سوى الاسم . وتسمى المقاطعة التي يحكمها القيل مقولة . ويرسم حدودها في العادة أملاك قبيلة (وأحياناً أكثر) يحمل رجالها السلاح وتدافع به تحت قيادة قيلها عن

أراضيها أو تخوض عند الاقتضاء معارك لصالح المملكة كلها . وكما أن القيل في مقولته قائد عسكري فإن الملك بمثابة القائد الأعلى للجميع . وللمملكة عادة جيش رسمي يسمى «الخميس» تابع للملك ولكن في عصور الحميريين المتأخرة ظهرت عبارة «خميس قيلي» أيضا ، وهو متطور لم يتفحص أحد بعد دلالته .

ويفترض أن تكون الاسرة القيلية نابعة من الأرض التي يقوم عليها نفوذها . ولاشك أن السلطة فيها - وراثية . ولكن لدينا أمثلة على تدخل الملوك في شؤون الأقيال . ولعل هذا تطوراً جاءت به فترة الحروب الطويلة التي سبقت الاشارة اليها . فكثيراً ما ضمت مقولة إلى أخرى لأسباب تتعلق غالباً بالولاء للملك أو للحاجة العسكرية كأن يوكل إلى قيل أثبت جدارته قيادة قبيلة أو عدة قبائل إلى جانب قبيلته الأصلية . ويعبر عن ذلك باضافة اسم الأسرة أو الأسر القيلية التي كانت تقود القبيلة أو القبائل الجديدة إلى اسم ذلك القيل .

واكثر من ذلك فانه يستولي على قصور تلك الأسر أو بيوتها كما تسمى في النقوش لأن قصر القيل كقصر الملك هو رمز السلطة ومركزها .

ولابد أن شيئا من هذا القبيل قد حدث لليزنيين في مطلع القرن السادس . ففي نقش يعود تاريخه الى عام ٥١٠م ، عثر عليه ضمن مجموعة كبيرة من النقوش خطت على صخرة في شعب ينبق[١٢] المتفرع من وادي عماقين نلاحظ أمرين : أولهما أن لقب

الأسرة أصبح يضم اسم جدن إلى جانب يزن وهو ما يعني حتماً امتداداً جديداً لنفوذ الأسرة ، وثانيهما ـ وهذا هو الأهم ـ هو أن الأسرة في طورها اليزني ـ الجدني هذا أصبحت تسيطر على مناطق حضرمية لم تكن من قبل تابعة لها . وهذا قد يفسر إضافة اسم جدن خاصة إذا تذكرنا الدور الذي قام به الجدنيون في عملية إخضاع وادي حضرموت قلب المملكة القديمة . وقد أدى إلى سيطرة اليزنيين على كافة المناطق التي كانت خاضعة لملوك حضرموت ، قبل ضم مناطقهم من قبل الحميريين ، أو بعبارة أخرى النصف الشرقي من مملكة التبابعة بما يعنيه ذلك من تحكم في الموانىء الشرقية بل وجزيرة سقطرى .

وإنا لنعلم ، من ناحية أخرى ، أنه في عام ٥١٦م كان على العرش ملك يدعى معد يكرب يعفر هو آخر من تحلى باللقب الملكي الذي بدأه أبو كرب أسعد قبل زهاء قرن من ذلك التاريخ باستثناء أبرهة الذي عاد إليه . ومعلوماتنا عن هذا الملك قليلة وباهتة ، كما أننا لا نملك معلومات موثوقاً بها عن علاقة اليزنيين به . فهم لم يذكروا أي ملك في نقش ينبق المذكور والذي خط على الأرجح في عهده . وهو ما يجوز أن يكون تفسيره ضعفاً في الولاء إن لم يكن خروجاً كاملاً أو بداية خروج عن الطاعة .

ومن التاريخ اليمني القديم لدينا أمثلة على محاولات الخروج عن الطاعة . وهذا يرجع عادة إلى العلاقة القلقة بين المؤسستين

الملكية والقيلية ، فبقدر ما يقوى الملوك يضعف الاقيال وبقدر ما يقوى الأقيال يضعف الملوك[١٣] .

اليزنيون وراء يوسف اسأر يثأر :

لم تنقض ثلاث سنوات أو أقل على آخر نقش مؤرخ معروف لمعد يكرب يعفر (٥١٦ م) حتى نرى على العرش ملكا جديداً يضفي عليه أتباعه ، كما يظهر من نقوش يزنية ، لقب أو صفة «ملك كل الشعوب» أي القبائل ، ذلك هو (يوسف اسأر «يثأر» اليهودي العقيدة والمعروف عند الإخباريين باسم ذي نواس . ويظهر من نفس النقوش أن ذلك الملك كان يستند في حروبه الداخلية الواسعة (من باب المندب إلى نجران) على اليّزنيين الذين كانوا بجانبه حين أحرق كنيسة ظفار العاصمة وقتل الأحباش (تجار ورجال دين في الغالب) ، وحين حارب الأشاعر والركب وفرسان وأهل المخاء الميناء الشهير على البحر الأحمر لتعاطفهم مع الأحباش ولاشك . هذا في حين تولى القيل شراحيل اشوع اليزني احتلال نجران بحشود من قبائل ذي همدان حضرهم وأعرابهم ومقاتلين مختارين من اليزنيين وبأعراب من كندة ومراد ومذحج . وكان اليزنيون في ذلك الوقت يعتنقون اليهودية .

لقد بذلت محاولات كثيرة ، قبل وبعد العثور على تلك النقوش اليزنية ، لتفسير تصرفات ذلك الملك اليهودي وموقف الأحباش

منه . وهي تفسيرات تدور حول المنافسات الدينيه وصلتها بالصراع الفارسي البيزنطي ومصالحهما التجارية المتصادمة . كل ذلك اعتماداً بالدرجة الأولى على مصادر دينية مسيحية ، وروايات عربية حرص المسلمون على تقييدها عند تفسيرهم لبعض آي الذكر الحكيم ، ومصادر أجنبية معاصرة أو قريبة عهد بالحملة الحبشية التي تلت ذلك . وهي محاولات يمكن الرجوع اليها في مكانها ولا يكاد يخلو من الإشارة إليها كتاب أو مقال يتناول الحكم الحبشي في اليمن(١٤) . ولكن القليل منها هو الذي تعرض للدور اليزني وبواعثه رغم ما ذهب إليه البعض من أن ذا نواس (أي يوسف اسأر) نفسه يرجع إلى أصل يزني(١٥) .

بعد حكم معد يكرب يعفر الذي كان على العرش قبل وقت قصير من زمن أقدم النقوش اليزنية التي ذكرت يوسف اسأر ، متحليا بلقب التبابعة الطويل . وهو لقب يجعل من غير المحتمل أن يكون صاحبه تابعاً للأحباش كما قد يفترض البعض(١٦) وجاء يوسف اسأر مشاراً إليه بلقب أو نعت لا صلة له بالماضي القريب بما يوحي بأن وصوله إلى السلطة لم يكن بطريق الوراثة أو الاختيار السلمي ، وانه ربما قام بجمع شمل القبائل بعد شتات وتفرق أو حاول ذلك .

فهل هناك عهد يتخلل العهدين حدث فيه تمزق ؟ المصادر الاخبارية بطريقتها القصصية الذاتية تحدثنا عن ملك مغتصب ، ومصادر أخرى توحي بأن ملكا فرضه الأحباش كان على العرش قبل ذي

نواس[١٧] ، ويصعب علينا في واقع معارفنا الراهنة أن نقطع بشيء في هذه المسألة الشائكة .

إن انتشار المسيحية في مواقع متفرقة من اليمن كما يظهر من مصادر مسيحية قديمة لابد أن يكون سبباً في تعاطف نصارى تلك البقاع مع ، أو تطلعهم إلى ، اخوتهم في الدين في أي مكان وخاصة في الحبشة. وقد دلت الأحداث المذكورة على أن شبكة من العلاقات الدولية كانت تربط رجال الدين المسيحي . وهذا إذا كان كافياً لكي يحاول الأحباش التدخل مرة ثانية في اليمن حماية لمصالح لهم أو طمعاً في تحقيق مكاسب أو حتى دفاعاً عن عقيدة وأخوة لهم فيها ، فهو لا يعني بالضرورة أن الأحباش كانوا قادرين بقوتهم الذاتية وحدها على فرض إرادتهم لو أن اليمن كانت فيه دولة قوية متماسكة .

وهذا يجرنا إلى إشارة قد تبدو عابرة جاءت في أحد المصادر المسيحية هي تلك التي تقول بأن (معد يكرب) قد اضطر إلى اقتراض مبلغ من المال من سيدة نجرانية مسيحية ، وأنه لم يستطع رد الدين فتنازلت له عنه وعن أرباحه[١٨] . إن هذا ليدعونا إلى التأمل في أحوال ذلك الملك وأن نعود إلى التساؤل الذي طرحناه حول موقف اليزنيين في عهده ؟

إن اليزنيين الذين كانوا يسيطرون على نصف المملكة الشرقي بموانيه الشرقية الأقرب إلى الهند ، والذين اشتهروا في الشعر

الجاهلي (العائد الى نفس العصر الذي نحن بصدده) بإنتاج أسنة رماح عرفت باسمهم[١٩] ، والذين تدل نقوشهم على القوة والتباهي بالقوة - قد يكونوا وراء إضعاف السلطة المركزية ، الأمر الذي ربما أثار شهية الأحباش من جديد . ولكن من المؤكد أن نفس القوة التي كانت في يد اليزنيين هي التي جعلتهم ، قبل غيرهم ، يتصدون للأطماع الحبشية حين برزت دون أن ينسوا تطلعاتهم هم كما سنرى .

اليزنيون والكلاع والحملة الحبشية :

لعل أخطر الثغرات في وثائقنا الايبقرافية هي تلك التي تختص بالفترة مابين عام ٥١٨م وعام ٥٢٥م أو بين حروب يوسف اسأر المعروفة والحملة الحبشية المشهورة التي أشار إليها نقش يزني من حصن الغراب ، الاسم الحديث للصخرة التي تقوم عليها قلعة ماوية المطلّة على ميناء قنا والتي ما زالت خرائبها ماثلة للعيان .

إننا إذا قارنا قائمتي المناطق والقبائل التابعة لليزنيين في نقشي ينبق (عام ٥١٠م) وحصن الغراب (عام ٥٢٥م) أي قبل حروب يوسف وبعدها ، نلاحظ أن اليزنيين - الجدنيين كانوا في النقش الأقدم يسيطرون على النصف الشرقي من اليمن بكامله كما أسلفنا ، وأنهم في النقش الأحدث ربما فقدوا الجزء الداخلي من وادي حضرموت ولكنهم بالمقابل سيطروا على الركن الجنوبي الغربي ، في

الكلاع على أطراف الهضبة العالية ، وتحكموا في أهم أجزاء الساحل الغربي حيث تعيش قبيلة الركب المجاورة للمخا . ونلاحظ بصفة خاصة إضافة جديدة لاسم الأسرة هي عبارة اولى الكلاع (الهت كلعن) التي وضعوها في النقش في المقدمة قبل يزن وجدن بما يذكرنا بما فعله الهمدانيون حين جعلوا بتع قبل همدان في القرن الثاني . وليس لدينا من تفسير لهذه الاضافة إلا أن يكونوا قد مدوا نفوذهم إلى تلك الأصقاع نتيجة الحروب التي خاضوها فيها تحت راية يوسف اسأر .

يصف نقش حصن الغراب اعتصام سميفع اشوع واثنين من بنيه ، واحدهما يدعى معد يكرب يمجد ، بقلعة ماوية التي رمموا استحكاماتها ومرافقها . ويذكر أنهم عادوا لتوهم من أرض الحبشة ، وأن عودتهم رافقت قدوم الاحباش الذين اكتسحوا أرض حمير وقتلوا ، كما يقول النص ، ملك حمير ، دون تسميته ، وأقياله الحميريين والأرحبيين (أي اقيال الهضبة الغربية وحدها) .

إن اليزنيين الذين حرصوا على أن يسجلوا في النقش أنهم سادة الكلاع والركب بل والهان والسلف لم يعترضوا طريق الأحباش الى الهضبة إذن .

يقول الطبري على لسان هشام بن محمد :

«. . . إن السفن لما قدمت على النجاشي من عند قيصر حمل

جيشه فيها ، فخرجوا في ساحل المندب . قال « فلما سمع بهم ذو نواس كتب إلى المقاول يدعوهم الى مظاهرته ، وأن يكون أمرهم في محاربة الحبشة ودفعهم عن بلادهم واحدا ، فأبوا وقالوا : يقاتل كل رجل عن مقولته وناحيته . . . »[٢٠] .

إن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو ماذا كان يفعل اليزنيون بأرض الحبشة في وقت قريب جدا من وقت الحملة حتى إن المرء ليفترض أنهم شاهدوا التحضير لها هناك .

سميفع اشوع :

إن الجواب على السؤال قد يكون في تولي سميفع اشوع الحكم ملكاً صريح التبعية للأحباش . هذا إذا كان سميفع اشوع الملك هو سميفع اشوع القيل - وهو ما نرجحه . ولا يضعف من الترجيح شيئاً أن يكون الملك المذكور نصرانياً ، وأن اليزنيين كانوا يهوداً عندما حاربوا إلى جانب يوسف اسأر ، ذلك لأن مياها كثيرة عبرت باب المندب جيئة وذهاباً في الفترة بين الحدثين .

إن تصميم اليزنيين دون غيرهم من الأذواء والأقيال على مقاومة ابرهة وأسرته لا يمكن فهمه إلا إذا كان لهم سابق عهد بالحكم .

ونحن نعلم أنهم لم يكونوا ملوكاً قبل مجيء يوسف اسأر بل وحتى زمن الحملة الحبشية المعروفة . والوقت الوحيد الذي يبقى

لقيام حكم يزني محتمل هو بعد الحملة ، وبعد الحملة كان هناك سميفع اشوع .

إن تطلع اليزنيين إلى الملك بعد أن بلغوا ما بلغوه من قوة أمر طبيعي في نظام الحكم الكونفدرالي شبه الاقطاعي . وفي التاريخ امثلة حية على وصول أقيال وأذواء إلى العرش كما هو حال بني همدان وبني ذي ريدان الخ .

وكان متوقعاً أن يرث اليزنيون حكم التبابعة لو سارت الأمور على هواهم . ولكن مأساتهم ـ فيما يبدو ـ انهم لم يستطيعوا أن يثبتوا أقدامهم في الهضبة الغربية حيث كان مركز الحكم التقليدي إنْ كان في ظفار أو صنعاء . ولعل أطماع الأحباش فيها وقربهم منها كان له أثره . ولقد كانت المحصلة ـ على أي حال ـ أن قبل سميفع اشوع بحل بدا له مقبولاً وهو الحكم ملكاً لحمير ونائباً للنجاشي .

أبرهة :

اننا اذا تأملنا في قائمة الأقيال الذين كانوا موالين لأبرهة (كما جاء في نقشه الكبير الذي تركه عند السد بمأرب) سنجد ، كما نعتقد ، أن ابرهة كان يستمد قوته الحقيقية من ولاء أقيال الهضبة له . وبهم استطاع (كما فعل قبله التبابعة) أن يخضع أقيال المناطق الشرقية وزعماءها الأساحر وآل ذي خليل في مأرب والكنديين في حضرموت واليزنيين في ديارهم بالمشرق .

ربما كانت القوة الحبشية التي تخلفت عن الحملة هي أداة الانقلاب على سميفع ، وهو بعد ليس إلا انقلاب قصر ، فسميفع اليمني لا يقل ارتباطاً بالأحباش عن أبرهة العسكري الذي جاء مع الحملة . أما القوة الحقيقية التي مكنت ابرهة من الثبات فهي قوة يمنية بالدرجة الأولى ، دون شك . وفي التاريخ الحديث جاء محمد علي ضابطا في القوة التركية وانتهى به المطاف مؤسسا لأسرة حاكمة في مصر .

إن نفور أقيال الهضبة من اليزنيين هو الذي حقق لأبرهة ما أراد . وليس صدفة أن يكون بين أنصاره جدنيون ساهموا في إخماد ثورة المشرق .

ولقد اختط ابرهة سياسة حذرة تجاه النجاشي ، ملك الحبشة ، حين اعترف له بولاء لا نظنه يعني شيئاً كثيراً اللهم إلا إذا قلنا إن عواطفه كانت - ربما بحكم الديانة - أقرب إلى أكسوم من غيرها من الدول . كما أن لعواطف أتباعه من الأحباش الموجودين باليمن أثره رغم أنهم تحولوا عملياً إلى جالية مقيمة . كما حدث لكثير من الغزاة في أماكن كثيرة من العالم القديم ، فلم نسمع بأنهم حاولوا العودة إلى بلادهم الأصلية أو أن أحداً حاول إجبارهم على ذلك .

ولقد افلح ابرهة في أن يعيد للسلطة المركزية هيبتها وأن يتخذ من جديد لقب التبابعة الطويل . وأن يتابع سياسة شبيهة بسياستهم

نحو وسط وشمال الجزيرة ، وإذا كان ذلك قد اتفق مع ما كانت ترمي إليه أكسوم وبيزنطه ويخدم مصالحهما فلا ننسى أن ذلك كان يخدم أيضاً المصالح المحلية لنظام ابرهة الحبشي المحلي . ولعله لم يكن عبثاً أن الوفود كانت تأتي إليه من كل الأطراف : من الشرق (فارس وحلفاؤها) والغرب (بيزنطة وحلفاؤها) رغم تناحرهما[٢١] .

إن دور ابرهة الحقيقي في التاريخ ربما كان نجاحه ، ولو إلى حين ، في إيقاف نزعة التفكك والتحلل التي بدأت أواخر أيام معد يكرب يعفر أو بعده ، ونجاحه ذاك لا يمكن أن يعزى إلى القوة الحبشية . والمصادر تجمع على أنه جاء إلى الحكم دون رضى أكسوم .

ولعله ماكان ليجرؤ على تحديها لو لم يكن يتمتع بتأييد محلي من غير الأحباش كما أسلفنا . وهناك بين الروايات التي وصفت انقلابه رواية تقول أن سلفه ارياط الذي أداخ اليمن وغلب عليها أعطى الملوك واستذل الفقراء ، فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة الأشرم أبو يكسوم فدعا إلى طاعته فأجابوه فقتل أرياط وغلب على اليمن[٢٢] .

وكل ما وصل إلينا من أخبار ابرهة يدل على انه ترك أثراً ملحوظاً على عصره . فقد تحدث عنه الشعراء . وجاء النسابون فيما بعد فأوجدوا ـ ربما من أجل شهرته ـ مكاناً مرموقاً لملك أو قيل اسمه ابرهة في النسب الحميري[٢٣] .

اليزنيون على العرش من جديد

لم يكن أبناء ابرهة وخلفاؤه من بعده في مستوى التركة التي آلت اليهم . والمصادر التي تحدثت عنهم ركزت على سوء تصرفاتهم . فهذا هو المسعودي يقول : إن يكسوم ، الابن الأكبر ، حين ملك بعد أبيه عَمَّ أذاه سائر اليمن كما أن مسروق أخاه الذي تلاه اشتدت وطأته على اليمن . . .[٢٤] .

وبهذا فإنه ، كما يقول ابن اسحاق ، «لما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذي يزن الحميري ، بطلب النصرة من قيصر على أن يكون ملك بلادي لك» . ولما لم يجد عنده بغيته توجه إلى كسرى عارضاً عليه أن «يكون له ملك اليمن»[٢٥] .

ويعلل ذلك جواد علي بأن «تحاسد الأقيان وتنافسهم على القيادة كان وراء إخفاقهم في التخلص من حكم الأحباش ، وأنه لذلك وجه بعض السادة أنظارهم نحو الخارج . . . وكان صاحب هذا الرأي والمفكر فيه (سيف بن ذي يزن) . . . وقد نجح في مشروعه فاكتسب صفة البطولة[٢٦] .

ولعل التحاسد ، على حد تعبير جواد علي ، هو الذي مكن مسروق من أن يسير إلى الفرس ، ومن لحق بابن ذي يزن من بشر كثير «في مائة ألف من الحبشة وحمير والأعراب»[٢٧] .

إنها نفس النزعة إلى التفكك تؤدي دورها من جديد وباستمرار فهي - بلا شك - وراء حركات التمرد التي واجهها سيف (أو معد يكرب) حين ولي الحكم حتى قادت إلى مصرعه الذي لم يكن «الحرابة» الأحباش إلا أداة فيه[٢٨] .

وغرق اليمن بعد ذلك في بحر متلاطم من النظم المتنافرة المتناحرة حتى جاء الإسلام ، ولم يكن حكم الفرس إلا واحدا من تلك النظم كما هو معروف .

وانكفأ اليزنيون على أنفسهم في أراضيهم أذواء من الأذواء .

هوامش

١) أبو الحسن بن الحسين بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٦٦م ، ج١ ص ٢٤٥ - ٢٤٨ ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الطبري ، تاريخ الرسل ، والملوك القاهرة ١٩٦٨م ، ج٢ ص ١٣٩ - ١٤٨ .

٢) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت - بغداد ١٩٦٩م ، ج٣ ص ٤٧٢ محمد عبد القادر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، بيروت ١٩٧٣م ، ص ١٩٦٧ .

٣)

M. A. Bafaqih, The Site of Kadur in Proceedings of The Seminar for Arabian Studies (PSAS), London 1982, Vol. 12, p. 2.

٤) الطبري نفس المصدر ص ١٤٢ .

٥)

M. A. Bafaqih. Le Yemen au cours de la periode des rois de Sabà etde du-Raydàn (1er au 3eme siècle). Thèse de Doctorat d'Etat es Lettres et Sciences Humaines (en Polycopie) 1983, 3.III

٦) محمد عبد القادر بافقيه : اثار ونقوش العقلة ، دراسة ميدانية لأحد المواقع الأثرية بالقرب من شبوه في منطقة حضرموت ، القاهرة (١٩٦٧م) ، خاصة ص ٤٢ و ٧٤ و ٧٦ .

٧) محمد عبد القادر بافققيه وكرستيان روبان : أهمية نقوش جبل المعسال ، في ريدان (حولية الآثار والنقوش اليمنية القديمة ، لوفان ، ١٩٨٠ ،م المجلد الثالث ص ١٧ وت ٣٨ و ٤٠ .

٨) محمد عبد القادر بافقيه : يمنة الحلقة المفقودة في سلسلة اللقب الملكي الحميري ، في :

AL-Hudhud, Festechrift Maria Hofner, Umiversitat Graz, 1981, p2-3.

٩) محمد عبد القادر بافققيه : هوامش على نقش عبدان الكبير ، في ريدان المجلد الرابع ١٩٨١م الصفحات ٣٦ و ٣٨ فيما يتعلق بوسط شبه الجزيرة العربية وشماليها .

١٠) أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني : كتاب الإكليل تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ، بغداد ١٩٨٠م ، ص ٢٣٩ .

١١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر الخ . . .، بيروت ١٩٧١م ، ج٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٦ .

١٢) M.A.Bafaqih, New Light on the Yzanite Dynasty, in PSAS 1979, vol. 9, p.5-9.

١٣) Bafaqih, Le Yemen... opcit.

١٤) جواد علي : نفس المصدر ص ٤٥٦ - ٤٦٨ ، بافقيه : تاريخ اليمن القديم ص ١٦٢ - ١٦٧ .

Ifran Shahid, The Martyrs of Nafran, New Documents Bruxelles. 1971, p. 252-276

١٥) Ifran Shahid opcit p. 261, M.3.

١٦) Ibid

١٧) Ibid. p. 115

١٨) Ibid p. 60

١٩) جواد علي : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٢٤ - ٤٢٥ .

٢٠) الطبري نفس المصدر ص ١٢٧.

٢١) بافقيه : تاريخ اليمن القديم ص ١٧٠ - ١٧١

٢٢) الطبري نفس المصدر ص ١٣٧

٢٣) الهمداني نفس المصدر ص ١٦٠ - ١٦٢

٢٤) المسعودي نفس المصدر ص ٣٤٥

٢٥) محمد عبد الملك بن هشام : السيرة النبوية تحقيق محمد فهمي السرجاني القاهرة ١٩٧٨م ، ج١ ص ٦٣

٢٦) جواد علي : نفس المصدر ج ٣ ص ٥٢٢

٢٧) الطبري : نفس المصدر ص ١٤٤

٢٨) الهمداني : نفس المصدر ص ١٠٣، ١٣٢، ١٦٥

- نشرت في «المنتدى» ٣، دبي اكتوبر ١٩٨٣

٥

مملكة نزار وإقليم البحرين

خلفية تاريخية

إن أقدم ذكر لنزار وملوكها ، في كل المصادر المعروفة حتى الآن ، هو ذاك الذي جاء في نقش من القرن الثالث الميلادي ، يتحدث عن سفارة قام بها أحد أعوان الي شرح يحضب ، ملك سبأ وذي ريدان في الجانب السبئي ،(١) لدى ملوك المناطق الشمالية في شبه الجزيرة العربية . وهي سفارة متصلة ، ولاشك ، بالتبادل التجاري أو المصالح المشتركة الأخرى وان لم يفصح النقش عن ذلك كعادة النقوش ، المزبورة على الحجر ، في الايجاز .

وفي ذلك العصر كانت سبأ طرفاً في حرب متشعبة الأطراف اشتركت فيها كل الممالك القائمة على جانبي البحر الأحمر بما فيها الجارة الأفريقية في البر الغربي ، اكسوم ، التي اتاحت لها الخلافات اليمنية الحصول على موطىء قدم في تهامة(٢) .

على أن تلك الحروب ، التي احتدمت يمنياً في القرن الثاني وبلغت ذروة اشتعالها بدخول الأحباش طرفاً فيها في القرن الثالث ، انتهت في حوالي عام ٢٨٠م بتوحيد النصف الغربي من اليمن ، بين نجران وعدن ، على يدي ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش ملكي سبأ وذي ريدان في الجانب الحميري .

ثم لم يلبث شمر ، وحيداً على العرش ، أن وضع اليمن ، قبل نهاية نفس القرن ، على أعتاب مرحلة تاريخية جديدة ، وذلك حين بدأ عملية ضم حضرموت واستولى بالفعل على شبوه عاصمتها ،(٣) واتخذ ، من أجل ذلك ، لقب ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنه(٤) .

ولكن ملوك حضرموت لم يستسلموا وانما تراجعوا ، بعد سقوط عاصمتهم ، إلى المناطق الداخلية من البلاد ، خاصة وادي حضرموت العامر بالمدن ، والقرى والأراضي الزراعية . ومن هناك ظلوا يقاومون الملوك الذين جاؤوا بعد شمر مباشرة قبل أن يتم دحرهم آخر الأمر(٥) .

وقد كان وسط وشمال شبه الجزيرة العربية ، على ذلك العهد وقبله بوقت ، موزعاً على قبائل رئيسية نعرف منها : كندة ومذحج وقحطان والأزد ونزار وغسان بل وتنوخ(٦) . وهي قبائل يحكمها ملوك يطبهم بملوك اليمن مصالح ومواثيق(٧) . ولا غرابة في

ذلك ، فوسط الجزيرة وشماليها يخترقه «طريق البخور» القادم من أقاصي اليمن[٨] ، بفرعيه الشرقي المتجه إلى العراق ، والغربي المنتهي بسواحل فلسطين . وهو طريق ، ظل خلال قرون عديدة ، أحد الشرايين الكبرى للتجارة الدولية بين الشرق والغرب .

على جانبي ذلك الطريق قامت ، بطبيعة الحال ، محطات[٩] تطور بعضها فأصبح حواضر لا يستهان بها ، منها حواضر تلك الممالك وغيرها[١٠] . وهي حواضر عرفت كل مظاهر الرفاه المتاحة للناس في تلك العصور[١١] . وفي المصادر الإغريقية ما يشير إلى هذه الحقيقة التي كشفت أعمال الحفر الاركيولوجي المتناثرة هنا وهناك ، والتي مازالت في بداياتها ، عن بعض جوانبها[١٢] .

ومما لاشك فيه أن البيئات البدوية كانت تتخلل مواقع تلك الحواضر بل وتطيف بها ، حتى أنه كثيراً ما انقسمت القبيلة الواحدة الى حضر وبدو[١٣] . وإذا كان بعض البدو قد دفعتهم الحاجة إلى قطع الطرق[١٤] فإن البعض منهم أيضاً قد شارك في خيرات التجارة العربية بصورة أو بأخرى[١٥] .

ولقد بالغ كثيرون في تصوير أهمية الغارات البدوية على أطراف الممالك اليمنية في بعض المراحل وظنوا انهم كانوا جميعاً بدوا قادمين من خارج اليمن ، وأساؤوا فهم تلك الظاهرة التي نعتقد أنها لم تكن إلا إحدى النتائج الجانبية للصراع المتشعب بين الممالك اليمنية نفسها والوجود الحبشي في تهامة بالذات[١٦] .

ولهذا فانه سرعان ما سيطر اليمنيون على الوضع من جديد حين شرعوا في توحيد الممالك المتناحرة من قبل في دولة واحدة وقضوا على تناقضاتهم الداخلية وتخلصوا من الوجود الحبشي .

ومع ذلك فان انشغال شمر يهرعش بترتيب الأوضاع الداخلية شجع ، فيما يبدو ـ الملك العربي الشمالي امرأ القيس بن عمرو ، الذي تربطه بالفرس والروم علاقات حسنة ،[١٧] ، على ان يقوم بأعمال عسكرية واسعة مكنته من إخضاع الأسدين ونزار وملوكهم ومطاردة مذحج حتى بلوغه أطراف نجران «مدينة شمر» كما يفهم من نقش النمارة[١٨] وإلى أن يحكم قبضته على كل معد .

أين كانت تقع مملكة نزار ؟

لقد تكرر ذكر نزار وملوكها في النقوش ، المعروفة حتى الآن ، مرتين . ولكن أحداً لم يحاول فيما نعلم ، ان يضع يده على موقع مملكة نزار . وهذا هو السؤال الذي سنحاول معالجته فيما تبقى من هذا المقال ، مستندين في محاولتنا إلى مؤشرين اثنين : أولهما يأتي من نقش عبدان الكبير الذي نشر نصه وتعليق منا عليه منذ وقت قريب[١٩] ، والآخر من قراءة جديدة يقترحها بيستون لنقش النمارة .

أرض نزار

تحدث نقش عبدان الكبير في إحدى فقراته عن غارة شنتها قوات حميرية على معد وبلغت أرض نزار وأرض غسان (تماما كما يقال

أرض سبأ وأرض حمير الخ في النقوش) . ومع أن النقش لا يحتوي ، في الجزء المقروء ، على ما يحدد هذه الأراضي صراحة ، إلا أنه يذكر أن القوات الحميرية اصطدمت هناك بعشيرة «شن» وبني نكره وبني . . وعبد القيس . وكلها قبائل أو بطون مهما اختلف النسابون حولها فهم متفقون على ارتباطها بعضها ببعض وعلى كونها من ربيعة من نزار ، وعلى أنها صاحبة إقليم البحرين والمسيطرة عليه حتى مجيء الاسلام[٢٠] . وهكذا يظهر من النقش وجود علاقة بين أرض نزار وبين عبد القيس وأخواتها أو فروعها ، كما يرى بعض النسابة ، من جهة . وبين نزار وبين مغد من جهة أخرى .

ثاج

أما نقش النمارة فيبدأ وصف مناقب امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلها ، حسب قراءة بيستون الجديدة ، بعبارة «ذو اسرى الى ثاج» وملك الاسدين ونزار وملوكهم[٢١] .

وثاج ، كما هو معروف ، من المدن التاريخية في إقليم البحرين وتدل آثارها الماثلة على ازدهار يرقى إلى القرون السابقة على الميلاد وأنها مرت في تاريخها بمراحل مختلفة وكان من بين ما عثر عليه في موقعها قطعة نقد ، من نوع محلي يحاكي عملات اغريقية ، سكها ملوك هجر[٢٢] .

ورغم اختلاف الباحثين حول المقصود بهجر التي سك ملوكها تلك العملة[٢٣] إلا أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن قطعاً أخرى من نفس النوع عثر عليها في أماكن اخرى متفرقة من إقليم البحرين نفسه ، بره وجزره البحرية[٢٤] . بل ان احداها عثر عليها بأحد المواقع الأثرية في الامارات العربية المتحدة[٢٥] .

ولما أن هجر هو اسم قصبة إقليم البحرين في الجاهلية وظلت كذلك حتى دمرها القرامطة عام ٢٨٧ هـ . وبما أن هذا الاقليم قام فيه أحد كبار المراكز التجارية العربية الدولية قبل الميلاد ، وهو مدينة جرهاء[٢٦] التي عدت في المصادر الإغريقية موازية من حيث الشهرة والازدهار لسبأ[٢٧] ، فإننا لا نرى مبرراً لاستبعاد احتمال كون هجر هذه هي نفس هجر مقر أولئك الملوك الذين أصدروا تلك العملة .

وفي نقش عبدان الكبير فقرة تتحدث عن غارة حميرية أخرى بلغت يبرين ، تلك الواحة الغارقة في بحر من الرمال ، والغنية بمصادر المياه ككل واحات المنطقة ، وانطلقت إلى أماكن أخرى منها هجر[٢٨] .

معد واليمامة

في إحدى الفقرات التي وصفت غارة استهدفت الجو

والخرج[٢٩] ينتقل المغيرون ليحاربوا قبيلتين ذكرتا بالاسم وعشائر من معد . والخرج كما هو معروف من مواضع اقليم اليمامة المحاد من الغرب لاقليم البحرين تفصلهما رمال الدهناء بمراعيها الخصبة .

والإقليمان يشكلان معا إقليما واحدا هو إقليم العروض . وتعتبر اليمامة أيضا ظهيرا زراعيا للبحرين وللحجاز معا لتوسطها بينهما[٣٠] .

أرض نزار وإقليم البحرين

من كل ما تقدم نعتقد أنه يصعب عدم الربط بين أرض نزار ، القبيلة والمملكة ، وبين إقليم البحرين ذي التاريخ التجاري العريق . والتجارة كانت عماد كل ازدهار عرفته شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام . أما الزراعة ، إن اتسعت ، كما في اليمن ، أو ضاقت وتناثرت ، كما في البحرين[٣١] فإن دورها الأساسي هو توفير الحد الأدنى لمتطلبات قيام المراكز التجارية والمحطات على الطرق الرابطة بينهما . ولعل أصدق دليل على ذلك هو أن كل الحواضر اليمنية الرئيسية (العواصم) ، لفترة ماقبل الميلاد ، كانت تنحصر حول رملة السبعتين (مفازة صيهد قديماً) ، محيطة بها كما تحيط المرافىء بالبحار ، بعيداً عن أغنى المناطق الزراعية الطبيعية كوادي حضرموت في الشرق ، وقيعان الهضبة الرئيسية في الغرب . وقد تجشم أهل تلك الحواضر مهمة بناء أعمال ري هندسية معقدة ،

ودات كلفة عالية ، ليوفروا لأنفسهم متطلباتهم من المنتوجات الزراعية الاستهلاكية في الغالب[٣٢] كل ذلك لأن رملة السبعتين كانت مبدأ الطريق التجاري البري نحو الشمال .

ولقد كان إقليم البحرين بالمقابل رغم سباخه ورماله البحرية ، وبفضل مغاصات اللؤلؤ في مياهه الضحلة الدافئة الصافية ، وبخلجانه وخيراته المتعددة الصالحة لإيواء السفن[٣٣]

وينابيعه الثرة نتيجة الانحدار الطبوغرافي العام لشبه الجزيرة نحوه ، وبوضعه الجغرافي وعلاقاته المكانية ، بمثابة الواجهة الشرقية لكل البلاد العربية . وقد عمل كل ذلك على أن يكون له حضور تاريخي مستمر وعلى أن يكون له في تاريخ التجارة الدولية العربية وفي قصة التمدن العربي دور متميز ومكمل ، في نفس الوقت ، للدور الذي كان يقوم به اليمن في الغرب والجنوب مما لا يتسع المجال لتناوله في هذه العجالة .

إن العلاقة بين مملكة نزار وإقليم البحرين يوحي بها إيحاء قوياً كل ما استعرضناه من مؤشرات في النقوش . على أن الحقيقة كاملة ما زالت مدفونة تحت الرمال في انتظار علماء الآثار .

١) م.ع . بافقيه وك . روبان : «من نقوش محرم بلقيس» في ريدان ، حولية الآثار والنقوش اليمنية القديمة ، المجلد الأول ، لوفان ، ١٩٧٨ م، ص ٥١ - ٥٤ .
٢) م.ع . بافقيه : «اليزنيون وخلفية الأحداث التي أدت الى قيام وسقوط حكم الاحباش في اليمن قبيل الإسلام في : المنتدى ، دبي ، اكتوبر ، ١٩٨٣م ، ص ١٣ وت٥ . انظر المقال في هذا الكتاب .
٣) م.ع . بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١٤٩ .
٤) يعد شمر يهرعش من ملوك حمير الذين يضفي عليهم الاخباريون صفة «تبع» . وهي صفة تقول بعض مصادرهم انها تطلق على الملك الذي يشمل حكمه كل بقاع اليمن بما فيها حضرموت والشحر .
٥) م.ع . بافقيه : «اليزنيون . . .» ص ١٣ وت ٨ .
٦) م.ع . بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، ص ١٥٠ فيما يختص بذكر «مملكة فرس وأرض تنوخ» في نقش من عهد شمر يهرعش .
٧) نفس المصدر ص ١٣٠ - ١٣١ في العلاقة بين كندة وسبأ كمثال .
٨) نفس المصدر ص ٥٥ و١٨١ .
٩) نفس المصدر ص ١٨٣ .
١٠) هناك مثلا «الخصاصة» وملكها امروء القيس بن عوف والتي لا نعرف موضعها على وجه التحديد وإن كنا نعرف أن الخصاصة موضع بالحجار لبني الحارث بن كعب . انظر الإشارة إلى الخصاصة في المصدر أعلاه ص ١٣٠ .
١١) نفس المصدر ص ٦١ .
١٢) د . عبد الرحمن الطيب الانصاري : قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ١٤٠٢ . و

Breton, J- Fr. Audouin, R et Seigne J., Rapport preliminaire sur la fouille du «Chateau Royal» de Sabwa (1980- 1981), dans raydan, 4, Loavain, 1981, P163- 190 et pl. 1-XVI.

١٣) د . ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ؛ ط ٤ ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص ٥ ـ ٩ . ولقد كانت هناك فئة تدعى في النقوش «اعراب مأرب» نسبة الى تلك الحاضرة العربية القديمة الهامة .

١٤) تحدث بليني (من القرن الأول للميلاد) في كتابه التاريخ الطبيعي عن اشتغال نصف العرب بالتجارة ونصفهم الآخر بقطع الطرق أو الصعلكة . ولدينا من القرن الثالث ما يدل على نشاط بعض العشائر المتصعلكة في أنحاء السراة ربما من نفس المواضع التي عرفت حركة الصعلكة التي خرج من صفوفها شعراء مبدعون في القرن العاشر .

١٥) شارك البدو في أعمال من مثل هداية المسافرين والعير في مسارب الصحراء وخفارة القوافل التجارية والانخراط في الجيوش التابعة للحضر . وكل هذه جوانب تحدثت عنها النقوش .

١٦) Bafaqih, M.A., le Yemen au cours de la période de rois de Sabà, et de du Raydan (1er au 3ème Siècle); thèse de doctorat d'etat es letters et sciences humaines (en polycopie) Paris 1983, 3. III. D.B.

١٧) حاول بستون تفسير جمع امرىء القيس بين صداقة الفرس والروم بأن ولايته جاءت بعد معاهدة السلام بين الفريقين عام ٢٩٧م والتي دامت ١٤ سنة . انظر

Beeston, A.F.L., Nemara and Faw , in Bulletin of the School of oriental and African Studies (BSOSA), 42 , 1979, p.p. 5— 6.

١٨) نفس المصدر . ومن أجل خلاصة حسنة للموضوع انظر جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٣ بيروت ـ بغداد ١٩٦٩م ، ص ١٨٧ ـ ١٩٤ .

١٩) م.ع . بافقيه : هوامش نقش عبدان الكبير ، في ريدان مجلد ٤ ، ١٩٨١م ، ص ٢٩ - ٤٨ .

٢٠) انظر على سبيل المثال : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي معجم ما استعجم ، ج١ ، القاهرة ١٩٤٥م ، ص ٨١ - ٨٢ . على ان عدم ورود اسم لكيز في النقش ، ما لم يكن ضاع مع الجزء المعطوب من الفقرة ، يعد أمراً مستغرباً . وهناك من يعد بني نكرة من لكيز . انظر : ابو بكر حمد بن الحسن بن دريد الأزدي : كتاب الاشتقاق ، بيروت ١٩٧٩م ، ص ٣٢٩ . ولقد كانت لكيز بالبحرين في الجاهلية واليها نسب الاخنس بن شهاب التغلبي البحرين كلها ، وهو يعدد ديار القبائل ، وذلك بقوله :

لكيز لها البحران والسيف كله وان يأتها بأس من الهند كارب

٢١) Beeston opcit p.p 3 and 6.

٢٢) مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، اصدار إدارة الأثار والمتاحف - وزارة المعارف - المملكة العربية السعودية ، ١٣٩٥ - ١٣٧٥م ، ص ٥٤ - ٥٧ و٨٠ - ٨١ .

٢٣) Salles, Jean-François, Monnaies d'Arabie Orientale; élémeuts pour l'histoire des émirats arabes arabes unis à l'epoque historique, dans proceedings of the seminar for Arabian studies (BSAS), 10, London, 1980, p. 101.

٢٤) Robin, Christian , monnaies provenant de l'Arabic de Nord-Est, dans Semitica, XXIV, Paris, 1974, pp. 86!— 96ev 93- 94.

والمواقع هي ثاج وفيلكة والبحرين .

٢٥) الآثار في دولة الامارات ، اصدار ادارة الأثار والسياحة ، العين ، دولة الامارات العربية المتحدة ، ١٩٧٨ - ١٩٧٩ ، ص ٧٨ و٨١ .

٢٦) نفس المصدر ص ٧٨ - ٧٩ .

٢٧) م.ع. بافقيه: تاريخ اليمن القديم ص ١٩٠ .

٢٨) م.ع . بافقيه : (هوامش . .) ص٣٤ . .

٢٩) نفس المصدر ص ٣٦ ، والخرج تقع بأسفل وادي حنيفة باليمامة ، انظر : د . عبد العال عبد المنعم الشامي ، اقليم العروض في كتابات الجغرافيين العرب ، الكويت ، ١٩٨٣ م ١٤٠٣هـ ، ص ٩٠ـ ٩١ .

٣٠) د . عبد الله يوسف الغنيم : جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري ، الكويت ، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م ، ص ١٤٤ .

٣١) نفس المصدر ص ١١٤ ود . عبد العال عبد المنعم الشامي المصدر أعلاه ص ٤٤ ـ ٥٦ .

٣٢) كان اللبان المحصول الرئيسي المصدر من شبوة ، وهو مصدر ثراء المملكة الأول ، ومع ذلك فهو لم يكن من منتجات منطقة شبوة ولا علاقة له بزراعتها .

٣٣) د . عبد الله يوسف الغنيم : أقاليم الجزيرة العربية ، بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة ، الكويت ، ١٤٠١ هـ/١٩٨١م ص ٥٢ .

● نشرت في «المنتدى» ٦ ، دبي يناير ١٩٧٨ .

٦

الهمداني والمثامنة

تحدث الإخباريون عن طائفة الأذواء الذين يعرفون بالمثامنة ، وهم ، عند شارح القصيدة الحميرية ، :«أبيات ثمانية ، يسمون المثامنة من حمير ، ولا يصلح الملكُ لمن ملك من حمير إلا بهم حتى يقيمه هؤلاء الثمانية وإن اجتمعوا على عزله عزلوه» (القصيدة : ص ١٥٧) .

وهذه عبارة يمكن أن نفهم منها أنه ما لم يقر أولئك الثمانية لملك من الملوك بالملك ولم يدعموه فلا يستقر ولا يصلح له ملكه . . كما يجوز لنا أن نفهم أكثر من ذلك لولا أن الهمداني يصفهم بأنهم (الإكليل ٢/٢٩٤) :

«ثمانية أبيات افترق فيها الملك بعد ذي نواس» ويضيف :

«وقيل ذي نواس في الخرفة الاولى»

أي أن ذا نواس ـ في بعض الأقوال ـ أقدم عهداً من وقت افتراق الملك في المثامنة .

● انظر أسماء المراجع كاملة في آخر المقال . .

من هم المَثَامنَةْ ؟

تتضارب الأقوال فيهم بصورة غريبة حتى يبلغ عدد المرشحين لهذه المكانة اثني عشر اسماً (انظر القائمة في آخر المقال) . فهم عند نشوان ، حيث قيدوا في قصيدته شعراً :

ذو ثَعلبَان وذو خليل وذو سَحَر وذو جدن وذو صرُواح وذو مُقار وذو حزفر وذو عُثكْلان

بينما تعرضت رواية الهمداني لخلل عند النسخ أو الطبع (لم يعلق عليه القاضي محمد الأكوع) جعل قائمته تحتوي على سبعة أسماء فقط وهم (٢/٢٩٤) :

ذو سحر وذو ثعلبان وذو خليل وذو عثكلان وذو جدن وذو مناخ وذو لصراوح ....

ويبدو من ثبوت اسم ذي مقار في نماذج الشعر التي استشهد بها الهمداني انه هو الثامن عنده ، ولكن لا يمكن الجزم بذلك .

«وأما قول علقمة بن ذي جدن في المَثَامِنَة المشهور في قصيدته» كما يذكر الهمداني (الإكليل ٢/٢٩٥) ففيه :

ذو عثكلان وذو خليل وذو مقار وذو ثعلَبَان وذو سحر وذو قيفان وذو حزفر وذو جدن

ونجد عند ابن رسول (في طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب)[١] قائمتين فيهما بعض الاختلاف ، تضيف الأولى ذا يزن (ص ٤٨) وتضيف الثانية (ص ٥٥) ذا معافر .

المثامنة في النسب والنقوش

كل الأذواء الواردة أسماؤهم في هذه الروايات ، ما خلا ذا مناخ وذا معافر ، على اختلاف في درجة النسب ، يرجعون إلى حمير الأصغر من فرع سدد .

أما ذو مناخ فيرجع الى طبقة أعلى في النسب الحميري فهو أخ للصوار بن عبد شمس بن وائل (الاكليل ٢/٤٤ و٩٣) . ولا ذكر لذي معافر عند الهمداني أو نشوان بين أذواء حمير .

وكل الأذواء المذكورين باستثناء ذي قيفان ، لهم صدى في النقوش :

فقد جاء ذكر آل ذي ثعلبان (ذو ثعلبن والهت ثعلبن) في نقوش ومخربشات متأخرة وجدت في الأنحاء الشمالية .

كما عرف آل ذي خليل (كآل ذي حزفر) في النقوش من خلال التاريخ بأشخاص زعمائهم eponymat في التقويم السبئي . وعرفوا أيضا من نقوش تركها أفراد منهم ، أو أشير فيها إليهم من قبل آخرين ، من بينهم أتباع «لهم» . مثل :
(Fa121; J646, 672 and 711; R3860 B and 4083)

ولدينا عدد لابأس به من نقوش بني ذي سحر ، خاصة من عهد أسرة فارع ينهب ، تحدثوا فيها عن شؤونهم الخاصة وأشاروا إلى اشتراكهم في بعض معارك عهد نشأ كرب يامن يهرجب الثاني .

ولهم بعد ذكر «في نقوش العصر الحميري» . ونورد على سبيل المثال .
(J567 and 664; R4135, 4146 and 4420)

أما النقوش التي تركها الجدنيون فكثيرة . وهي تمتد عبر فترة طويلة منذ العهد العتيق قبل الميلاد ، حيث كانوا بمأرب ولهم بها أو بالقرب منها أراض زراعية ، (C611) إلى عهد أبرهة حيث ذكروا في نقشة الكبير الذي تركه عند السند (C541) مروراً بكل العهود ـ التي تتخلل ذلك . وقد تولى أحدهم للحميريين قيادة جيش الأعراب الذي كان مركزه في نشق بالجوف (J665) ، وارتبطوا باليزنيين في أواخر عهد التبابعة . انظر أيضاً على سبيل المثال .

(Fa 75; C314 and 397; R4668)

وفيما يتصل بذى صراوح فليس لدينا نص صريح يتحدث عن زعيم بهذا اللقب . ولكن ابتداء من زمن شمر يهرعش على الأقل (J649, 3,26) أصبح هناك أقيال للشعب صراوح وخولان خضلم (الخضيل) ، وهو ما قد يعني نفس الشيء تقريباً .

«ومقار» في النقوش ـ كما هو معروف ـ هي مقرم . وقد ترك بنو مقار وأتباعهم بضعة نقوش معروفة أحدها شاهد مقبرة لأل ذي مقار (R3555) ، وآخر يروي قصة عراك اشترك فيها بعض اتباعهم . (J700)

وفيما عدا التاريخ ببعض زعماء الحزافر ، كما تقدم ، فإن لدينا نقوشاً أشارت الى أراضيهم (J821 A4) أو الى اشتراكهم أو أتباعهم في الحروب ضد حمير (J653,6) كما وردت أسماء البعض منهم في مثل : (R2726 and 3951) .

ولبني عَثكُلان (وأحياناً عثكلان عصيت) وأتباعهم عدد من النقوش تغطي عهوداً مختلفة خاصة من وقت كرب إل وتر يهنعم بن وهب ال يحوز (J563, 3, 6, 17) إلى عهد نشأ كرب يامن يهرجب الثاني (Fa 76,2) وفي الأخير ذكر لأملاكهم في مأرب ونشق ونشن كما تحدثوا في نقش (Fa 77, 17) عن بيت لهم بمأرب . ولهم ، بعد ذكر في نقش متأخر (Fa 74, 8) مؤرخ بالعام ٦١٤ من التقويم الحميري .

أما ذو مناخ فلم يعرف حتى الأن إلا من نقش واحد نشره منذ حين الأستاذ فالتر مولر (DJE 12-1) .

وأما اليزنيون فنقوشهم كثيرة خاصة تلك التي تأتي من أودية المشرق وحصن الغراب ونقوش عهد يوسف أسأر يثأر . ولعل أقدم نقش فيه ذكر لهم يأتي من العقلة (J 1003) .

ولقد ذكر ذو معافر بهذه الصفة ، في نقوش المعسال (رقم ٥) التي اكتشفت أخيراً وكان قيلا موالياً للأحباش ومناهضاً للملوك من بني ذي ريدان في القرن الثالث الميلادي .

وقد بقي من نسل معظم هذه الأسر بطون وبيوت وأفراد في الإسلام تحدث عنهم الهمداني في الإكليل الثاني ولعله أشبع الموضوع في كتب السيرة المفقودة .

ويظهر من حديثه هناك أنه لم يعرف عن آل ذي ثعلبان إلا انقسامهم إلى بطون أربعة (الإكليل ٢/٣٢١) .

بينما بقي حتى الإسلام من ينتسب في آل ذي خليل ومنهم بعض بني بُحر (بُحر حمير) (الإكليل ٢/٣٢١) الذين يقول عنهم الأكوع (ت ٢) أن لهم بقية في مخلاف اقيان بلاد شبام).

وأما آل ذي سحر فنحن نعرف أن نشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٣ هـ) ينتمي إليهم، فهو يقول (منتخبات : مادة رثد) «ذو مُراثد ملك من ملوك حمير واسمُه حسان ذو مراثد بن ذي سحر من ولده نشوان بن سعيد مصنف هذا الكتاب. ولا يوجد مُراثد على وزن مقاتل ومحارب إلاّ في حمير، ثم لا يوجد في حمير إلا هذا البيت، وهو بيت بلقيس ملكة سبأ».

ومن مشاهير آل ذي جدن الذين يشار اليهم في كتب النسب والتاريخ علقمة ذو جدن الأصغر الشاعر المعروف بالنواحة لأن شعره - كما يقول الهمداني - كله مراثٍ في حمير وقصورها (الإكليل ٨) ..... وقال (الإكليل ٢/٣٠٠) :

«قد كتبنا ما أدركناه من شعره في كتابنا هذا (أي الإكليل) لأنه معدوم «بالعراق والشام قليل في أيدي العلماء». ووصف قصيدته العينية بأنها «من أحسن المراثي وأسلسها معظمة عند أهل اليمن وغيرهم من العرب».

ولم يذكر الهمداني من آل ذي صراوح إلا طناً ،احداً (الإكليل ٢/٢٩٣) هو رداع قائلاً «بطن غلب على اسم الوطن»

ومن بطون آل ذي مقار عنده «عوسجة» وقد أدرك منهم (الإكليل ٢/١٧٠) محمد بن ابراهيم بن اسحاق العوسجي الذي

يقول عنه : «وكان سيداً جواداً شجاعاً حليماً شاعراً»، على أن آل يعفر الحواليين (الإكليل ٢/١٧٧) الذين حكموا اليمن قرابة مائة وخمسين سنة هم أشهر من ينتسب إلى آل ذي مقار (قارن شرح القصيدة الحميرية ١٦٥ - ١٦٦) ومنهم أسعد أبو حسان الذي يصفه الهمداني (الإكليل ٢/١٨٤) : بـ

«ملك عصرنا» ويقول إنه «ذهب على من قبله بالصوت» ، وإنه : «فارس حمير في عصره» الخ (ت ٨ رمضان ٣٣٢) .

ويبدو أنه كان بمأرب بطن يعرف بالقشيب من بقايا الحزافر أو أتباعهم وأن منهم المعاجل ببيحان (الإكليل ٢/٣١٦) . كما يقول الهمداني إن دعوة سبأ مأرب كانت : يا للقشيب حزب ، وحزب «يا للهجر» . .

ولم يخصص الهمداني فقرة «لنسب آل عثكلان مع انهم من الأسر التي ذكرت في نقوش متأخرة نسبياً كما تقدم .

وعلى العكس هناك حديث طويل في الاكليل الثاني عن آل ذي قيفان (ص ٣٠٢) ، الذين هم في النهاية من آل ذي جدن ، يدور حول علقمة بن ذي قيفان الأصغر صاحب الصمصامة وملك البون .

ويعد في آل ذي مناخ الجعافر ملوك الكلاع في الإسلام . حكموها زمناً ثم أزالهم منها القرامطة (الإكليل ٢/٩٣ - ٩٥) . وقد ذكر الهمداني بعض من كان بصنعاء منهم على عهده .

وأفاض الهمداني في نسب آل ذي يزن (الإكليل ٢/٢٥٤ ـ ٢٦٣) ، وذكر أبرز زعمائهم في صدر الإسلام . ويبدو من كلامه أن بطوناً كثيرة كانت تنتسب إليهم فهو يقول (٢/٢٦٢) :

«وآل ذي يزن بين لحج ومرخة «وهم الايزون» . . . وإن منهم عدد كثير بحمص وحضرموت من اليمن (٢/٢٦٣) .

وهكذا فإنه يجوز لنا أن نخلص إلى أن هذه البيوت التي ترقي أصولَها إلى ما قبل الاسلام ، بشواهد النقوش ظل معظمها باقياً في الإسلام بصورة أو أخرى .

اتجاهان حول دور المثامنة

إذا كانت رواية شارح القصيدة الحميرية القائلة بأنه «لا يصلح الملك لمن ملك من حمير إلا بهم حتى يقيمه هؤلاء الثمانية» تحمل معنى تنصيب الملوك كما قد تعني مجرد حاجتهم الى دعمهم لتستقر لهم الأحوال . فان ابن رسول صاحب طرفة الأصحاب يقول في أحد المواضع من كتابه (٤٨٥) :

«وأما الأقيال فهم كثيرون ، وإنما سُمِّي القيلُ قيلاً لأنه يخلف الملك في مجلسه فيجلسُ في مكانه ، ويحكمُ فلا يرد قولُه ، فمنهم المثامنة ، وهم ثمانيةُ رجالٍ كانوا من حمير ، وأولادهم قبائل من حمير ، ويُسمَّون المثامنة ، وكانوا لا يتملك ملك من حمير إلا بإرادتهم ، وان اجتمعوا على عزله عزلوه وهم : يزن وسحر وثعلبان الأكبر ومرة ذو عشكلان هؤلاء من أولاد سبأ الأصغر ، ومقار بن مالك

من أولاد حمير الأصغر ، وذو حزفر من أولاد حمير الأصغر وعلقمة ذو جدن ،وذو صُرواح» .

ثم يأتي في موضع آخر من نفس الكتاب فيقول (ص ٥٥) :
«والمثامنة وهم من حمير : ثمانية أقيال استقامت بعد سيف بن ذي يزن ، ورد أهل اليمن الملك إلى هؤلاء الثمانية ، وهم : آل ذي مناخ وآل ذي يزن وآل ذي خليل وآل ذي مقار وآل ذي عثكلان وآل ذي ثعلبان وآل ذي مقار وآل ذي جدن ، وكان أعظمهم آل ذي يزن لخؤولة أسعد الكامل .

وهذه الرواية - إذا تغاضينا عن الاختلاف في أسماء المثامنة - إنما تؤيد ما ذهب إليه الهمداني عن افتراق الملك بعد ذي نواس بوقت . وهي تجعل ذلك بعد سيف بن ذي يزن على وجه التحديد .

المثامنة وتنصيب الملوك

إننا إذا تناولنا أولا الاتجاه الذي يجعل للمثامنة دوراً في تنصيب الملوك فإنا نجد عند الهمداني رواية قد تساعدنا على فهم أفضل للمسألة فهو يقول (الإكليل ٢/١١٤) .
«وكانت أقوالها (يعني حمير) تكون في كل عصر ثمانين قيلا من وجوه حمير وكهلان ، فإذا حدث بالملك حدث ، كانوا الذين يقيمون القائم من بعده ويعقدون له العهد . وكان قيام الملك من قدماء حمير عن اجماع رأي كهلان ، وفي الحديث عن رأي أقوال حمير فقط ، وكانوا إذا لم يرتضوا بخلف الملك تراضوا لخيرهم وأدخلوا

مكانه رجلاً ممن يلحق بدرجة الأقيال ، فيتم الثمانين قيلا ، ولم يكن هذا في حمير إلا مرات يسيرة ، لأن الملك لم يكن يعدو آل الرائش ، إلا أن يتوفى الملك وأولاده صغاراً أو يكلّ فيُفعَلَ ذلك حتى يُتَدَبر في سواه من آل الرائش» .

ونحن إذا رجعنا إلى مصادرنا الايبقرافية فلا نجد فيها إشارة صريحة تتعلق بدور الأقيال في تنصيب الملوك . ولكنَّ لدينا نقشاً معيناً عن عملية توصف «بالتقنع» (ربما الاقناع) قام بها الأسباء والخميس والأقيال ؛ ، وهم أعمدة الحكم في سبأ ، نحو انمار يهامن بن وهب إل يحز ، وكان وقتها في بيت بني ذي غيان ، وترتب عليها انتقاله إلى سلحين مقر الحكم بمأرب .

فهل تكون هذه من الحالات العارضة التي أشار إليها الهمداني والتي كان فيها للأقيال دور في اختيار الملك ؟

أما فيما يتعلق بوصول قيل إلى العرش ، وهو أيضا ما ألمح الهمداني إلى إمكان حدوثه عند الاقتضاء ، فلدينا من نفس الفترة وصول الاقيال بني جُرَت ثم بني حمدان إلى العرش .

وأخيراً فإن فكرة إحلال قيل محل قيل آخر أصبح ملكاً . لاتمام الثمانين قيلا ، كما يقول الهمداني ، لتذكرنا بتولي قيل من آل ذي ذرانح مقولة ذمري/ذماري التابعة لبني جرت حين تولى سعد شمس الجرتي وابنه مرثد المُلْكَ .

وهكذا فإنه يبدو أن ما يقال عن دور الأقيال والأذواء في تنصيب الملوك إنما هو أمر يتعلق بالأقيال عامة وفي الأحوال النادرة .

وإن ما ذهب اليه الهمداني له ما يؤيده ، ولو إلى حد ما ، من شواهد النصوص الايبقرافية

المثامنة كملوك متفرقين

نحن نرجع إذن أن عملية تنصيب الملوك لم تكن وقفا على المثامنة وأنهم - اذا صح اشتراكهم فيها في بعض الظروف - فانهم فعلوا ذلك كغيرهم من الأقيال .

ومن هنا فإن الاتجاه الثاني يبدو أكثر قرباً من واقع الأشياء فهو الاتجاه القائل بأنهم : «ثمانية أبيات افترق فيها الملك بعد ذي نواس» على رأي الهمداني . أو أنهم ثمانية أقيال استقاموا بعد سيف بن ذي يزن» على رأي ابن رسول .

ان مما يلفت النظر في قائمة أسماء المثامنة هو ان سبعة منها (٢ - ٨) كلها من الاسر السبئية التي أشير اليها في نقوش معبد اوام بمأرب .

وأن ثلاثة ممن عرفوا من النقوش أيضا (١٠ - ١٢) تقع ديارهم في الانحاء الجنوبية : المشرق والمغافر والكلاع .

هذا بينما يرجع آل ذي ثعلبان (رقم١) الى نجران ويعد آل ذي قيفان (١٠) امتدادا لآل ذي جدن .

وهذا يوحي بان المثامنة (رغم اختلاف الروايات) هم من زعماء أطراف مملكة التبابعة . وهو امر قد يعني انتفاض اطراف تلك المملكة على السلطة المركزية التي كانت في الهضبة .

ونحن نعلم من المصادر الايبقرافية وغيرها انه منذ اوائل القرن السادس أخذت دولة التبابعة في الضعف . وبدأ الاحباش يتدخلون مجدداً في شؤونها الداخلية . وان ذلك اقترن بالصراع الديني بين اليهودية والمسيحية ، وهو صراع كان يخفي دوافع ومصالح اقتصادية متعارضة . وظهر وقتها ملك عرف في الاخيار باسم ذي نواس ، وفي النقوش باسم يوسف أسأر يثأر . . يستند الى دعم الاقيال اليزنيين ـ الجدنيين ، الذين خاضوا تحت لوائه والى جانبه معارك ضارية امتدت من انحاء نجران شمالا الى باب المندب جنوباً .

والحق ان اليزنيين اقيال المشرق أخذوا في الصعود التدريجي منذ القرن الرابع (نقش عبدان الكبير) حتى إنا لنراهم في مطلع القرن السادس ، يتحكمون في مشارق اليمن بأجمعها ـ أو ما يعادل النصف الشرقي من مملكة التبابعة والمتمثل في أملاك دولة حضرموت القديمة .

وعلى أي حال فنحن هنا أمام وضع تتجلى فيه العلاقة القلقة بين الأقيال والملوك . وكيف أنه في لحظات ضعف المؤسسة الملكية يحدث الخروج عليها من قبل البعض او تزداد اهمية المؤسسة القيلية . وبالمقابل انه في حالة وجود ملوك أقوياء يستكين الأقيال .

ولعله يجوز لنا أن نرى في ظهور يوسف أسأر مدعوماً من اليزنيين خروجا من هذا القبيل . كما لا نستبعد ان يكون موقف اليزنيين غداة زحف الأحباش على أرض حمير (C621) خروجاً آخر ، وذلك بعد أن بلغ نفوذهم الكلاع ربما مروراً بالمعافر . وفي هذا الشأن يقول ابن خلدون (تاريخ .. ٢/٦٠) :

واستجاش ذو نواس بأقيال حمير فامتنعوا عن صريخه وقالوا كل أحد يقاتل عن ناحيته .

لقد كان تململ اليزنيين ـ الجنديين ، في مشارق اليمن البعيدة عن مركز الحكم في الهضبة ، سبباً في الأحداث والتغييرات التي أوصلت أولا يوسف أسأر اليهودي الى العرش ملكاً لكل الشعوب ، ثم سميفع اشوع ملكاً خاضعاً للنجاشي ومعتنقاً للمسيحية .

ولا شك ان حالة التململ بل والتناحر ذاتها ساعدت على الاطاحة بسميفع اشوع من ناحية ، وأدت من ناحيا أخرى ، في وقت لاحق ، الى ثورة المشارق عليه .. وهي ثورة جمعت أقيال سبأ الأساحر وآل ذي خليل والأقيال اليزنيين معد يكرب بين سميفع (الملك ؟) وهعّان واخوته بني اسلم ورافقها تمرد يزيد بن كبشة الكندي صاحب العبر .

واذا كان ابرهة قد استطاع أن يستعيد السيطرة على زمام الأمور حتى نهاية حياته فان نهوض سيف بن ذي يزن بعده مستغيثا

بالفرس انما يدل على أن جذوة الصراع لم تخمد . بل لعلها كانت السبب في سقوط سيف نفسه . فهذه المصادر الاخبارية تحدثنا عن صدام بين سيف وآل ذي مناخ مرة (الاكليل ٢/٩٥) والصدف والأشباء من حضرموت مرة اخرى .

وهكذا فانا نميل إلى أنّ المثامنة الذين افترق فيهم الملك بعد ذي نواس أو بعد سيف ذي يزن انما هم من الأقيال وأذواء الأطراف المحيطة بالهضبة بدءاً بنجران في الشمال مرورا بمأرب ثم أودية المشرق حيث كان يتمركز اليزنيون والجدنيون ، وانتهاءً بالمعافر فالكلاع .

وإن أولئك الأذواء ، نتيجة ضعف السلطة المركزية وانشغالها ونتيجة الحروب التي انطلقت شرارتها في حركة يوسف أسار ، قد استعذبوا الاستقلال عن تلك السلطة ، وأدت صراعات القمة بين الطامعين في العرش الى سقوط هيبة المؤسسة الملكية . هذا ناهيك عن الحالة الدولية السائدة انذاك والتحولات الاقتصادية الاجتماعية الفكرية التي كان يشهدها العالم القديم مما لا مجال الى مناقشته هنا .

ومن ثم ما إن اختفى سيف بن ذي يزن ـ ضحية التململ والصراع والتفكك ـ حتى استقام المثامنة من أذواء الاطراف كل منهم في أرضه وافترق بذلك الملك فيهم كما يقول الهمداني وظل كذلك حتى ظهور الاسلام .

٧ -

هموم عدي بن وداع

دراسة لقصيدة جاهلية

للشاعر الجاهلي عدي بن وداع قصيدة يعود الفضل في احيائها مع قصائد أخرى جاهلية ، الى الدكتور يحيى الجبوري . فقد قام بنشرها لاول مرة ، ضمن مجموعة تحت عنوان «قصائد جاهلية نادرة»[١] مسبوقة ، على النهج الذي اختطه في الكتاب ، بمدخل هو بمثابة «إضاءة عن جو القصيدة ومحتواها» على حد تعبيره[٢] .

ويقول الجبوري ، في سياق وصفه لقصائد المجموعة وما حفلت به من خواص : «أما المعجم اللغوي فنجد في هذه القصائد مفردات واستعمالات وصيغاً لا نجد لها أصلا في المعاجم المتداولة»[٣] .

وهذه مسألة تتصل بالعلاقة بين جمع الشعر الجاهلي وشرحه من جهة ، وجمع المفردات اللغوية وترتيبها في معاجم من جهة أخرى . فشارحو القصائد الجاهلية كثيرا مالجؤوا الى استنتاج المعنى

من السياق وان لم يصرحوا بذلك ، وواضعوا المعاجم لم يستقصوا كل الألفاظ التي جاءت في الشعر الجاهلي المعروف[٤]

سطر

وفي قصيدة عدي التي نحن بصددها هنا ، وهي أول قصائد المجموعة ، بيت يقول فيه الشاعر :

إن تُعطنَا سطَرَ الحفَافَين مقطوعاً لنا بتَلا إذن نفعَل

وقد شرح الجبوري «سطر الحفافين» ، في البيت بقوله إنه موضع بعينه[٥] .

ولكن البيت الذي يليه ، حسب الترتيب الذي وصلت فيه أبيات القصيدة الينا والذي ارتضاه الجبوري ، يقول :

إن الحفَافَين عقَارُ امريء يمنَعُه الضيمَ ،[٦] فلا تجْهلي !

وكان بوسع الشاعر أن يقول دون إخلال بالوزن .

سَطَرُ الحفافيْن عَقَارُ امريء يمنَعُه الضيمَ ، فلا تجهلي !

لو كان لفظ «سطَرَ» جزءاً لا يتجزأ من اسم الموضع كما يرى الجبوري .

فما هو ، يا ترى ، معنى «سطر» في البيت إذن ؟

في بعض النقوش اليمنية القديمة ترد لفظة «سطر» بمعنى «شقة من الأرض»[٧] فهل استخدم الشاعر اللفظ بنفس المعنى الذي وردت به في تلك النقوش ؟

إننا إذا تذكرنا ان الشاعر ازدي وان الازد كانت ديارهم محادة للأراضي السبئية في التاريخ القديم فلربما حق لنا ان نرجِّحَ ذلك . .

وبهذا التفسير ، يكون الخلاف الذي يتحدث عنه عدي انما يتعلق بشقة أرض . وهو خلاف بينه وبين امرأة لا نكاد نعلم عنها شيئا سوى تكنيته عنها بـ «ابنة كعب بن صليع» (البيت ٦) التي يخاطبها أيضاً بقوله «أختنا» (البيت ١١) ، والتي يستشف من القصيدة أنه تربطها به رابطة ما ، فهو يحملها جريرة ما آل اليه حاله من ضعف ومن هوان لأنها لم تمحضه الود (البيت ١٦) .

موضوع القصيدة

يقول الجبوري : «تدور القصيدة حول الغزل والفخر والحماسة والوصف وذكر الموت ، وتتداخل الاغراض بشكل حديث ذاتي او حوار بينه وبين حبيبته ، وينطلق من هذا الحوار الى الحديث عن فتوته وقوته وخصاله الفذة في الشجاعة والسماحة والكرم»[٨] .

ولا شك أن القصيدة قد حوت ذلك كله عناصر يتكون منها بناؤها الفني كما تتكون أعضاء الجسم ، أي جسم ، من عناصر مختلفة فلا تسترعي انتباهنا الأجزاء وانما يسترعيه الجسم في عمومه وفي علاقات أعضائه ببعض .

الحق اننا لا نستطيع أن نجزم مع الدكتور الجبوري بتداخل الاغراض اذا كان القصد من ذلك هو خلوها من الترتيب المنطقي أو

التماسك العضوي .

وللتثبت من الأمر علينا أن نستعرض القصيدة من جديد .

ازمان ..!

يستهل الشاعر قصيدته بذكرى قديمة من أيام الصبا ما زال قلبه كلفاً بها لا سبيل له الى نسيانها او تجاهلها :

١ ـ كلَفَني القلبُ فلم أجْهل عهدَ الصبا في السالف الأول[٩] .

وهذا الحب الذي ما زالت جوانحه منطوية عليه ، إنما يعود الى الماضي الذي كان يتمتع فيه بقواه الجسمية والعقلية كاملة :

٢ ـ أزمان إذْ أملكُ عقلي وإذ طرفى لم يخسأ ولم يكلل .

هكذا ، ومن أول القصيدة ، يتجلى الجو النفسي الذي نظم عدي فيه قصيدته ، جو نفسي تسيطر فيه مصيبة الضعف الذي انتاب بصره فتشيع في كل أجزاء القصيدة ـ كما سنرى ـ ظلالا كثيفة من الكآبة .

وفي هذه المقدمة الغزلية انما يسترجع الشاعر في مخيلته صورة قديمة للحبيبة وهي صبية . فهو يراها بعين خياله لا بعين الواقع :

٣ ـ أرى ابنة الأزدي قد أقبلت بين سموط الدر في المجول[١٠] .

٤ ـ كالظبية الغاردة الخاذل المحروفة المقفرة المطفل .

٥ ـ ظلت تعاطي بخلاء من الأرض شجون السلم المهدل[١١] .

ويذهب الجبوري الى أن «ابنة الازدي» ، التي استعاد شاعرنا صورتها القديمة ، هي نفس «ابنة كعب بن صليع» البيت ٦) ، ويضيف :

«ثم يجري بينهما حديث حول أرض الحفافين ، يبدو أنه كان عليه نزاع بين أسرتيهما(؟) ، ولذلك فهو يخيرها حسماً للأمر بامور هي العبد والبكرة الزهراء ـ والمناصفة»[١٢] .

سطر الحفافين

ولكنا نرى ان ترتيب الابيات هنا غير مستقر وأن تغييرا طفيفاً ندخله ربما يعيد إليها الاستقرار . فنحن نتصور أن الشاعر ـ الذي بدأ بالنسيب أو ما يشبه النسيب جرياً على التقليد الذي أرساه فحول الشعراء في القرن السادس والتزموا به[١٣] والذي طوع ذلك القيد الشكلي إذ استطاع أن يبثنا ، من خلاله ، همومه ـ الحقيقية ـ لا يطيل الوقوف عند ذلك النسيب وإنما ينطلق مسرعاً الى الدافع الاساسي لنظم القصيدة ، وهو الخلاف مع صاحبته . وهنا فانا نقدم البيتين التاليين على البيت السادس :

٧ ـ قالت ألا لا يشتري ذاكم إلا برغب الثمن الأجزل .

٨ ـ إن تعطنا سطر الحفافين مقطوعاً لنا بتلا إذن نفعل .

فهو يقرر انها اشترطت لتنازلها له عن شقة الأرض في الحفافين[١٤] ثمنا كبيرا جزلا . ويقول انه يقبل الشرط إذا كانت ستتخلى له عن سطر الحفافين ليصبح ملكا خالصاً له .

وهنا فقط يتوجه الحديث الى «ابنة كعب بن صليع» ، الزوجة النافرة او المفارقة ، ليقنعها بعدم جدوى تشبثها بالحفافين ، فيذكرها ، إن كانت قد نسيت ، أن الحفافين ، وهي ضيعة أو أرض ذات نخل (عقار) ، لا بد لها من رجل قادر على حمايتها ، رجل يجيد استخدام السلاح ومقارعة الأقران :

٦ ـ يا ابنة كعب بن صليع الا تستيقني ، إن كنت لم تذهلي !

٩ ـ إن الحفافين عقار امريء يمنعه الضيم ، فلا تجهلي ! ،

١٠ ـ مال امريء يخبط في الغمرة القرن ، غداة البأس ، بالمنصل[١٥] .

المواساة

وإحساساً من عدي بتعنت صاحبته ، التي لم ترفض البيع او التخلي وإنما بالغت في تقدير الثمن ، فهو يبدي استعداده لمواساتها[١٦] من حر ماله ، بما تختار لعلها ترضى عنه :

١١ ـ إن كنت تستأسين ، لا بد ، فالمعروف منا ، اختنا ، فاسألي[١٧] .

١٢ ـ العبد ، أو بكرتنا الحرة الزهراء ، أو منصفة النزل .

١٣ ـ طبنا بهذا لك نفساً ، فان ترضي به عنا إذن فافعلي .

إننا هنا ، أغلب الظن ، أمام خلاف زوجي بلغ مداه . فالزوجان يناقشان ـ ربما من خلال الوسطاء ـ الجوانب المادية التي تأتي في أعقاب الطلاق والمواساة التي يعرضها عدي تؤكد ذلك من خلال التركيز على المقتنيات المنزلية .

على أن مما يلفت النظر ان عدياً ، على العكس مما فعله شعراء جاهليون آخرون تحدثوا عن خلافاتهم الزوجية[١٨] لم يشر الى اسم صاحبته وإنما تحاماه باصرار ملحوظ ومكتفيا بعبارات «ابنة الأزدي» و«ابنة كعب بن صليع» و«اختنا» . وفي هذا نرى دليلا على تفاقم الخلاف بينهما ووصوله حد القطيعة .

بعضك !

ومع ذلك فان قلب عدي ما زال فيه ـ على ما يبدو ـ بقية من حب لصاحبته ، حب ليس له صدى عند الطرف الثاني ، الشيء الذي يجعله في حيرة من أمره حتى انه لا يدري أكان قلبه حقاً مشغولا ام كان فارغاً . وعجزه عن التمييز هنا يقابله عدم تمييزه ـ وقد كل طرفه ـ بين «النائي والمقبل» . ولهذا فهو يناشدها أن تترفق به (بعضك) :

١٤ ـ بعضك ، يا وجد امريء شفه الحب . . فلم يفرغ ولم يُشغل .

١٥ ـ أعمى ، على حال من الحال ، لا يشعر ما النائي من المقبل .

ويتوجه إليها بعتاب هو أقرب الى الاستعطاف إذ يقول انه ما كان ليلقى عليلا خائر القوى لو أنها محضته الود :

١٦ ـ لو كنت قد ادينتني الود ما ألفيت مثل الضمن الزمل .

ويردف فيصرخ في محاولة يائسة لاستدرار عطفها معلناً تفضيله الموت على أن يكون منسياً في الاحياء :

١٧ ـ أوديت في المودين إن كنت في الاحيا كالمنسي لم يحفل .

أي فتى !؟

ولم يكن مقبولا أو معقولا أن ينهي الشاعر قصيدته برنة الضعف الواضحة في الأبيات السابقة . ولهذا فإنه ، وهو الذي تتقاذفه مشاعر متضاربة نتيجة تضارب رغباته مع قدراته التي تأثرت بضعف بصره ، يحاول ان ينفض عن نفسه الشعور بالمهانة دون أن يتنصل من الاستعطاف الذي لم يكن له مندوحة منه في حالته الحاضرة .

بهذا يمكن أن نفهم فخره ببلائه القديم في الجزء اللاحق . وهذا الفخر يذكرنا بقصيدة علباء ابن أرقم في خلافه مع زوجته تماضر التي تخلت عنه وقالت انه لو مات فإن أبناءها الصغار سوف يقومون مقامه .

«زعمت تماضر انني إما أمت يسدد ابينوها الاصاغر خلتي»
فكان رده عليها فخراً كفخر عدي بخصاله الكريمة الفذة .

ويمثل الفخر في قصيدة عدي نصفها (الابيات ١٨ ـ ٤٩) . وهو أمر ، إن بدا فيه إخلال بالتوازن بين الأجزاء من ناحية الشكل ، ليس من العسير فهمه وتبريره . فالشاعر إنما يحاول أن يزيل من فمه ، قدر المستطاع مرارة الفاظ الشكوى والاستعطاف السالفة .

ولا يتسع المجال لاستعراض كل أبيات هذا الجزء وما يتخللها من ومضات تألق في التعبير الشعري تدل على طول باع هذا الشاعر الذي ظلمته المقادير فلم يصل الينا من شعره إلا القليل ، في حين ان وصوله الى ما وصل اليه من جودة في السبك لا يمكن أن يتحقق له الا من خلال تجربة شعرية طويلة أو ليس هو القائل في قصيدته الثانية :

وقومي يعلمون لرُبَّ يوم شددت بما ألم به نطاقي
أدافع عنهم ، والجرم فيهم دخيس الجمع بالكلم السلاق

والمفتخر ، في قصيدته هذه ، بأنه «صنع مقولي» (البيت ٤٧) .

ويبدأ عدي فخره هنا ببيتين يطلب فيهما من صاحبته ، كما كان يفعل الشعراء على عهده ، أن تسأل عن كريم خصاله ، ولكنه حتى في هذا المقام لا يفارقه الاحساس بثقل مصيبته .

١٨ ـ وسائلي القوم أرملوا والمعتفي الصحب بي فاسألي .

١٩ ـ أي فتى أعمى عدي[١٩] إذا ما باشر الكيد على التلتل ؟!

ويمضي بعد ذلك في نشيد طويل يبث في ثناياه فنوناً من شاعريته وقدراته على التصوير الفني بتشبيهات تتسم بالجدة نذكر منها تشبيهه لضرب السيوف بوقع تساقط حبات البرد المندفعة من السماء على الأرض ذات الحجارة (البيت ٢٢) .

٢٠ ـ قد أشحذ الصحب إلى موطن يكلح منه أحد المصلي .

٢١ ـ ضرب سيوف الهند صقعا كما يشعل غاب الحرق المشعل .

٢٢ ـ او كقصيف البرد الصيف المبعق[٢٠] في الظاهر ذي الجرول[٢١] .

أو تصويره لانتشار القتلى في الموطن بعيد المعركة إذ يشبه أجسادهم المتناثرة بالقرب الكثيرة الملقاة على جوانب المنهل :

٢٦ ـ حتى ترى القتلى لدى مزحف كالقرب الوفر لدى المنهل .

إن كنت أعمى !

ولا يلبث الشاعر أن يكشف لنا ـ دون وعي منه ـ ان فخره هذا انما هو رد فعلة لاستصغار شأنه بعد أن حل به العمى أو ما يقرب من العمى :

٣١ ـ إن كنت أعمى ، فاسألي القوم هل أسكن روع المرء ذي الافكل؟

ولا نستبعد أن ما بين عدي وصاحبته إنما فسد بعد أن كلَّ طرفه.

أن يصدف الاتراب..!!

وينتقل الشاعر بعد رحلة الفخر الطويلة إلى فخر من نوع آخر يحاول به أن يخفف على نفسه وقع مأساته في الجانب العاطفي ـ مأساة الصدوف الذي يلقاه من الاتراب ، ذلك الصدوف الذي لمسنا اثره من قبل في البيت السادس عشر (انظر اعلاه) ، فهو يقول هنا :

٥٠ ـ إن يَصْدف الاترابُ عني فقد أخدعُ مثل الرَّشا الأكحل .

وتشبيه الحبيبة بالرشا الأكحل تشبيه حبيب الى شعراء العصر الجاهلي استخدمه اكثر من شاعر لانه منتزع من الطبيعة المألوفة لديهم .

درة الغائص

على أن عدياً استخدم العبارة ليكمل بها قافية بيته الخمسين ، ليمضي من هناك الى تشبيه آخر يشبه فيه المشبه به، وهو الرشأ (والمقصود دائما هو المرأة) ، بدرة الغائص . ودرة الغائص عبارة

استخدمت في الشعر الجاهلي لوصف اللؤلؤة . ويلجأ عدي الى هذا التشبيه ليفيد منه في رسم صورة مليئة بالحياة لصيد وتجارة اللؤلؤ ليس فيها أية اشارة الى جارية أو سوق نخاسة كما تصور الجبوري[٢٢] وهنا نعيد ترتيب الابيات بغض الشيء .

٥١ ـ كدرة الغائص تهدى الى ذي نطف في غرفة المجدل[٢٣] .

٥٢ ـ جاء بها ادم صلب احص الرأس فيه الشيب لم يشمل[٢٤] .

٥٤ ـ شيُعٌ في قرواء مدهونة ذات قلاع صعُدا تغتلي ,

٥٥ ـ تختصم اللجة في العوطب . .[٢٥] ذي التيار والجُلجُل .

٥٣ ـ لما انتضاها ، موقن إنه إن يبلغ السوق بها يجذل ،

٥٦ ـ بشر أصحابا له : إنها تجبر فقر البائس الأرمل[٢٦] .

موعد

بعد هذا الاستطراد الذي استعرض فيه الشاعر براعته الفنية يعود الى رشأه الاكحل أو درته ليحكي لنا قصة مغامرة عاطفية له معها هي مما تعودنا عليه عند امريء القيس واضرابه . ونفهم من كلامها في الحوار الدائر بينهما انها امرأة متزوجة . فهي تخشى ان يقتلا اذا افتضح امرهما . وتخاف عليه بصفة خاصة من زوجها الغيور المقدام :

٥٧ ـ قالت ، وقد كُنَّا على موعد ، «ويلَكَ إن يدربذا نُقتل» .

٥٨ ـ أخشى عليك اليوم من مصعة خذباء من ذي هبة مقصل ،

٥٩ ـ بكف غير أن نهيك من القوم كصدر السيف لم ينكل» .

وما لم يكن قد ضاع منا بيت بعد ذلك يبدأ بكلمة قلت [٢٧] ، فإن الابيات التالية هي عبارة عن رده عليها . وهو رد مبتكر غير متوقع يبدو فيه استسلام العاشق لقدره . فلا هو بالمتوعد ولا هو بالمحتاط ولا هو بالساخر ولا هو بالناكص . هو رد ربما كان يعكس حالة شاعرنا النفسية وقت نظم القصيدة . رد يتجاوب مع الاحساس الذي عبر عنه في البيت السابع عشر (انظر اعلاه) .

٦٠ ـ عندك شعب من فوائد امرى ما به عنك اليوم من مزحل .

٦١ ـ إن تبذلي الود فتشفى به القلب ، وان خفت فلا تفعلي[٢٨] .

٦٢ ـ لشائنيك الويل ، إن تبذلي اغتل[٢٩] وشر لك أن تبذلي .

الخاتمة

يقول الجبوري ان الشاعر «ينهي القصيدة بوقفة عند الموت ومصير الانسان الذي سيحمل على آلة تنقله الى حفرة بالية هي قراره وقرار كل إنسان»[٣٠] .

على أن الأبيات الثلاثة التي تأتي في آخر القصيدة حسب الترتيب القائم تبدو شكلا مقطوعة الصلة بما يتقدمها (٣١) ويخيل لنا أنه لو نقل البيت ٣٣ الى ما قبل البيت ٦٣ أو نقل البيت ٦٣ الى ما بعد البيت ٣٣ لربما استقام المعنى بعض الشيء .

٣٣ - أعلم ان كل فتى للقتل أو بيت من الجندل .

٦٣ - يصبح جذمانا على آلة يعرفها الاخر للأول .

فالبيتان إن قدما معا أو أخرا معاً ، يشكلان في الموضعين تسلسلا طبيعياً في الأفكار .

أما البيت ٦٤ فيبدو لنا معضلا بوضعه الراهن في موضعه الراهن :

٦٤ - تعاقب الاسرى ودور الرحى ، وتالف ان هو لم يغفل .

فيما يصلح أن يأتي البيت ٦٥ بعد البيتين السابقين مباشرة .
وهو على أي حال زفرة ينفثها الشاعر يجمع فيها كل أشجانه وينفس بها عن كربه المقيم .

٦٥ - أو لم يفد أعقابكم قضية مثل وحي الصخر لم تخمل .(٣٢) .

وهذه الأبيات رغم اضطرابها والتركيز الشديد في صياغتها واحتمال وجود ثغرة فيما بينها انما تمثل قمة الكآبة المسيطرة على نفس الشاعر، تلك الكآبة التي يرزح تحت وطأتها شاعرنا .

فعدي الذي كل طرفه قد ثقلت عليه مصيبته ، وفي ذلك دليل على شدة ما كان عليه من إقبال على الحياة قبل ذلك . وإنا لنجد في قصيدته الثانية آثاراً قوية لذلك الاقبال من لهو (الأبيات ١٩ ـ ٢٢) وصيد (٢٣ ـ ٣٣) ومجالس شراب (٣٤ ـ ٣٥) .

وهذه القصيدة ، كما رأينا ، تدور حول علاقة عدي بامرأة يدل كل شيء على أنها كانت زوجاً له ففارقته . فهو يصرح بأنها تخلت عنه . وهذا يذكرنا بما فعلته امرأة الجميح الاسدي حين شح ما في يديه من مال ، سوى أن الجميح كان متماسكاً ساخراً[٣٣] ، في حين بدا عدي مضطرباً متهالكاً كسيف البال ، وسوى ان مقطوعة الجميح تمضي مباشرة الى الموضوع دون التفات الى تقليد شعري ، وقصيدة عدي لم تغادر صغيرة ولا كبيرة من متطلبات القصيدة التقليدية بدءاً بتصريع البيت الأول[٣٤] .

ولا ندعي اننا قد بلغنا الغاية في إبراز جمال هذه القصيدة ، فذاك مطلب يضيق به مجال كهذا . وإنما كان همنا أن نجلو ، جهدنا ، بعض جوانب الغموض التي تسببت فيها المسافة الزمنية بيننا وبين قائلها والهوة القائمة بين ما صارت اليه لغتنا وما كانت عليه على عهد عدي يوم كانت عضة الاهاب يشكلها «الشاعرون الناطقون» كيفما شاؤوا .

هوامش

١) يحيى الجبوري ، قصائد جاهلية ، بيروت ١٩٨٢م ، ص ٤٩ وما بعدها .

٢) نفس المصدر ص٥ .

٣) نفس المصدر ص٦ .

٤) يظهر هذا بجلاء عند تحقيق دواوين الشعر الجاهلي اذ يلحق محققوها بأواخرها كشفا بالألفاظ التي لم ترد في المعاجم . . وقد آن الاوان لان يستفاد من التقنيات الحديثة في القيام بهذه المهمة على نطاق أشمل .

٥) الجبوري ، المصدر أعلاه ص ٥١ ت٨ .

٦) أ ـ تعطي المعاجم لفظ «عقار» معان تدور حول الأرض والمتاع ولكنها تغلب جانب الضيعة والنخل .

ب ـ أورد الجبوري لفظة «الضيم» مضمومة ، ونحن نراها مفتوحة ، وبالفتح يستقيم لنا المعنى .

٧) المعجم السبئي ، تأليف أ . ف . ل . بيستون وآخرين (منشورات جامعة صنعاء) ، لوفان الجديدة ١٩٨٢ ، مادة : سطر .

٨) الجبوري ، المصدر أعلاه ص ٤٩ .

٩) أ ـ في «كلف» تقول المعاجم أن الكلف الولوع بالشيء مع شغل قلب ومشقة . . ولكنها لا تورد كلف الشيء وانما كلف بالشيء . وحتى في الحديث «اكلفوا من العمل ما تطيقون» نرى اللسان يفسرها بقوله «من كلف بالامر اذا ولع به» . اما «كلفت هذا الامر وتكلفته» ففسرت «بتجشمته على مشقة» عن ابن سيده ، على أن لدينا في «كتاب النقائض» طبعة بريل ج ١ (ص١) : كلفني قلبي وماذا كلفنا هو اذنيات حللن غرنقا .

ب ـ تستحق عبارة «السالف الاول» منا وقفة ، فلفظة «أول» هنا انما تعني القديم ، وفي الدارجة الحضرمية يقولون «زمان اول » للماضي السحيق . ومن هذا القبيل عبارة «الجاهلية الاولى»بمعنى القديمة .

١٠) المجول الثوب تلبسه الجارية الصغيرة .

١١) صورة الظبية تتعاطى (أو تعطو الى اوراق شجر السلم الغضة مثل صورة الرشأ الاكحل (انظر البيت ٥٠) من الصور التي أولع بها الشعراء الجاهليون فتكررت في شعر أكثر من واحد منهم . يقول علباء بن أرقم مداعباً زوجته المناكفة :

«فيوما توافينا بوجه مقسم كأن ظبية تعطو الى ناضر السلم ، ويوما تريد مالنا الى مالها فان لم ننلها لم تنمنا ولم تنم» .

١٢) في شرح الألفاظ استخدم الجبوري عبارة «خادم الضيوف» لعبارة «منصفة النزل» ، ولهذا فان كلمة «المناصفة» هنا غير واضحة ، انظر الجبوري ، المصدر اعلاه ص ٥٠ .

١٣) ما زال الدارسون يلهثون في سعيهم الى الوقوف على سر تقيد عيون الشعر الجاهلي ، قبل غيرها ، بتناول مواضيع معينة في القصيدة الواحدة بحيث تغدو ، بمعاييرنا العصرية ، قصائد متعددة في نفس واحد . من هذه المواضيع المقدمات من طللية وهي الاساس ، وغير طللية ، ومنها وصف الراحلة ومنها الحكم التي تختتم بها احيانا القصيدة ، وكلها مما نصادفه في قصيدة عدي هذه . وما زال السؤال عن علاقة هذه القيود الشكلية بالقصيدة الجاهلية ، في مراحلها الاولى الضائعة ، معلقا ، وقد حرص الشعراء منذ عهد امريء القيس على الاشارة إلى هذه التقاليد . فذكرها بعضهم ليؤكد التزامه بالخط كما فعل امرؤ القيس .

«عوجا على الطلل القديم لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حزام» وأومأ بعضهم اليها متضجراً من التكرار كما نسب الى زهير :
«ما أرانا نقول الا معاداً أو معارا من لفظنا مكروراً» .

ونحلل منها البعض حين كانت لا تتفق مع المقام كما فعل المهلل :
«أزجر العين ان تبكي الطللا ان في القلب من كليب غليلا» .
«كيف يبكي الطلول من هو رهن بطعان الانام جيلا فجيلا» .
وأوردها بعض على سبيل التقرير كما فعل لبيد :
«والشاعرون الناطقون اراهم سلكوا سبيل مرقش ومهلهل» .
وفي ظننا ان هذه الظاهرة غير قديمة جداً ، لا تتجاوز القرن السادس قرن المخاض العظيم للغة العربية ، أو لا تكاد ، والقرن الذي شهد مهرجاناً شعرياً لا ينقطع ، مهرجاناً يتبارى فيه الشعراء ، حتى انه ليقال انه كان ينصب لهم حكام في المجامع والأسواق . وإنا لنرى ان جو المباراة هو الذي فرض ذلك الشكل ، إذ كان لا بد للعبة من قواعد يستند إليها الحكام في حكمهم بين المتبارين .

١٤) لا نستبعد أن يكون سطر الحفافين شقة أرض أوسع هي الحفافين ، وان هذه الارض ملك اسرة واحدة هي اسرة عدي وصاحبته . وان نصيب المرأة هو تلك الشقة التي يسعى عدي الى ضمها اليه . ومشاركة المرأة للرجل لا يمكن أن تأتي الا من زواج أو قرابة . وقد رأينا في الهامش ١١ اعلاه كيف يتهم علباء زوجته بانها «تريد مالنا الى مالها» .

١٥) مناداة المرأة او الايماء اليها منسوبة الى أبيها أو قومها عادة نلمسها في الشعر الجاهلي ، وهي عادة متبعة الى اليوم في الحياة اليومية العربية ، ولدينا من الشعر على سبيل المثال قول خزيمة بن نهد :
«أرى ابنة يذكر ظعنت فحلت جنوب الحزن ، يا شحطا مبينا !»
وقول كعب ابن الرواع الاسدي :
«ذكر ابنة العرجي فهو عميد شغفاً شغفت بها وأنت وليد» .
وقول المرقش الأصغر :
«رمتك ابنة البكري عن جزع ضالة وهن بنا خوص يخلن نعائما» .

١٦) يقول عدي : اذا كنت تستأسين «أي اذا كنت تطلبين الأسوة او المواساة من أساه بما له : أناله منه وجعله فيه سواء ، كما في المعاجم . وفي الحياة اليومية في بعض أنحاء اليمن يقال للمال الذي يمنحه الزوج زوجته لمصاريفها الشخصية «مواساة» .

١٧) في البيت ١١ عبارة «لا بد» الإعتراضية ، وهي تقابل عبارة «من كل بد» المستعملة في بعض اللهجات العربية اليوم . وهذه في ظننا من العبارات السايرة في الحديث اليومي التي يلجأ اليها الشعراء . ومثلها «ما في» في البيت ٣٢ والتي يعبر بها عن عدم المبالاة واستواء الأمر في نظر المتكلم .
«اضرب في العورة ما في ان اخضمت أو أقضمت لم أتل» .

١٨) نذكر على سبيل المثال اسم زوجة الجميح الاسدي في قصيدته عن الخلاف بينهما والتي مطلعها :
«أمست امامه صمتا ما تكلمنا ، مجنونة أم احست آل خروب «وزوجة علباء بن أرقم «تماضر» التي تقدمت الاشارة اليها في ثنايا المقال .

١٩) لا بد انه من أجل هذا البيت لقب عدي بالأعمى . انظر الجبوري المصدر اعلاه ٤٩ وص ٥١ .

٢٠) يفسر الجبوري «المبعق» بالسحاب الذي يتصبب بشدة ، ولكن لا ذكر للسحاب في هذا البيت . كما ان لدينا في المعاجم «انبعق انبعق الشيء اندرأ مفاجأة وانت لا تشعر من حيث لا تحتسب ، وهو الانبعاق» . وهذا هو المعنى الذي يلائم ما في البيت الذي يراد به تشبيه صوت وقع السيوف في الاجساد بوقع حبات البرد الذي تدرأه السماء على الأرض الصلبة ذات الحجارة .

٢١) انظر المصدر أعلاه ص ٥٣ ت ٢٣ في شرح لفظة جرول حيث يقتصر على ذكر نوع واحد من الحجارة التي ينطبق عليها لفظة جرول ، وفي المعاجم «وأرض جرول ذات جراول ، ذات غلظ وحجارة» . وفي البيت تأتي

جرول في عبارة «في الظاهر ذي الجرول» التي ينبغي ان نشرحها بالارض المشرفة ذات الغلظ والحجارة اذ بهذا يستقيم معنى البيت . انظر ادناه .

٢٢) يقول الجبوري المصدر اعلاه ص ٥٠ ويشير الى عبد أسود خالط رأسه بعض الشيب جاء بجارية يعرضها في سوق النخاسة الخ .

٢٣) شبه الرشأ الاكحل بدرة الغائص وذلك بعد أن شبه شريكته في المغامرة العاطفية بالرشأ ودرة الغائص الا نفس الفتاة وان كان التشبيه مزدوجاً ، وامعانا في إبراز قيمة الدرة يقول انها مما يهدى الى امرأة ذات أقراط تقيم في غرفة بقصر (مجدل) والمقصود ـ كما هو واضح ـ انه لا يملك مثل هذه الدرة الا المترفون . ولا نتفق مع الجبوري في ان الشاعر شبَّه امرأة ذات نطف بالرشأ كما يفهم من ت ٥١ ص ٥٧ من المصدر اعلاه .

٢٤) وهذه الدرة جاء بها رجل اسمر أو أسْود ، رأسه «احص» أي منجرد الشعر ، «قد سرى اليه الشيب» وهذا الرجل هو الغائص بلا شك .

٢٥) وقد حمل الغائص (شُيِّعَ «بضم» الشين) على سفينة مدهونة لها قلاع كما يقول البيت ٥٤ . اما البيت ٥٥ فقد سقطت منه كلمة بعد لفظة العواطب غالباً ، والمعنى العام ، كما نتصوره من السياق هو : ان السفينة تقتحم أو تشق اللجة (والمقصود البحر بعامه) بين الأمواج أو في المواضع العميقة (العواطب) ، وبقية البيت وصف لصخب البحر وتضارب تياراته وما تحدثه من أصوات (الجلجل) . ولدينا في معنى تختصم رأي للجوهري ، يخالفه فيه آخرون ، يجعل من معانيها القطع :

فهو يقول : «حد السيف يختصم جفنه اذا اكله من حدته» . كما أن خصمه يخصمه تفسر أحيانا بغلبه . . وهذا يجعل «يخاصم اللجة» يغالبها أو يشقها .

٢٦) البيتان ٥٤ و٥٦ بعد ٥٥ يصفان حال الغائص الذي كان موقناً ، عندما انتضو، اللؤلؤة ، من الأعماق ، بأنه عندما يبلغ بها السوق سوف يسر بما

سيحققه من كسب . فهو يخبر أصحابه بأن هذه الدرة لما تستحقه من ثمن كفيلة بجبر فقر البائس عديم الزاد .

٢٧) نقول هذا تحرزاً مع ان شاعرنا في البيت السابع استخدم «قالت» لكلام صاحبته ولم يقل «قلت» في البيت الثامن لكلامه .

٢٨) يفهم من عبارة «وان خفت فلا تفعلي» ، اذا كانت بصيغة الأمر ، ان الشاعر ثقة في حرص الفتاة عليه ، وعلى سبيل المداعبة والتحريض الخفي ، يقول لها :«اما اذا كنت خائفة فلا داعي للقاء» .

٢٩) يبدو الشاعر غير مبال بالنتيجة التي يعرفها سلفاً وهو أنه سيغتال ان هي بذلت له الوصال . ويقول ان ذلك سيكون وبالا عليها لأنها ستفقده وكل هذه مشاعر غريبة اذا كان فهمنا للبيتين سليماً .

٣٠) المصدر أعلاه ص ٥٠ .

٣١) قارن بوضع البيت ٣٧ بالنسبة الى ما قبله في قصيدته الثانية المصدر أعلاه ص ٦٣ , .

٣٢) عبارة «وحي الصخر» وأمثالها التي استخدمها الشعراء للدلالة على دوام الأشياء منتزعة من واقع النقوش المنبثة في كل مكان من شبه الجزيرة . ومنها بيت لبيد الذي ذكره الجبوري المصدر أعلاه ص ٥٩ . ومن ناحية ترتيب الابيات فانه لا ينبغي علينا استبعاد احتمال تقدم البيت ٦٥ على البيت ٦٤ وان كان الشطر الأخير لهذا البيت يبدو قلقا في موضعه .

٣٣) انظر على سبيل المثال دراسة استاذنا الدكتور محمد النويهي لقصيدة الجميح في كتابة قضية الشعر الحديث ، القاهرة ١٩٧١ م ص ٤٥ وما بعدها ، والتي أعاد نشرها في دراسة له عن الشعر الجاهلي . ولقد كان النويهي ، وهو تلميذ لطه حسين من خيرة من تذوق الشعر الجاهلي وانصفه ، وإن كان النويهي نفسه لم يلق الإنصاف الذي هو أهله .

٣٤) لا ندري سبب الفارق وهل له علاقة بفارق الزمن بين الشاعرين وتطور اشكال التعبير الشعري أم أنه فارق في المزاج والقدرة والمناسبة .

● نشرت في «المنتدى» ٨ ، دبي مارس ١٩٨٤

الحنفاء العرب قبل الاسلام

.. مشروع إطار تاريخي

مقال الدكتور عز الدين فودة (عدد يوم ٤ سبتمبر ٨٥ ص ١٠) بعنوان «الحنفاء في جزيرة العرب أفراد لم يقروا الوثنية» يدعو الى التأمل . وبعض ما ورد فيه ، مما يتصل بتاريخ العرب قبل الإسلام ، يفتح الباب على مصراعيه للنقاش والتعليق .

ومعلوم أن الحنفاء المعروفين بأسمائهم ، من العرب في الجاهلية (رغم ما يحتاجه وصف جاهلية من تحديد زمني) جاؤوا في عصر او مرحلة بذاتها ونكاد نقول نتيجة تطورات معينة .

الحنفاء ودين ابراهيم عليه السلام

ومحاولة الارتقـاء - بأولئك الحنفاء أو ربطهم «المحكم» بالحنيفية «الاولى» ، محاولة مفهومة تستحق المتابعة ، ولكنها تتطلب أيضاً تحقيقاً تاريخياً موثقاً !

ولا بد أن الوثنيين كانوا يرون في الحنفاء أناساً انحرفوا عن طريق الآباء ـ طريق الوثنية ، تماما كما عد أوائل المسلمين صائبة في

نظرهم . ولكن «الحنيفية» كانت في نظر الحنفاء «استقامة» أو عودة الى الطريق القويم ، وإنها لكذلك .

وجاء الاسلام وكرم الحنفاء لأنهم يدعون الى عبادة الاله الواحد ـ تماما كدين ابراهيم عليه السلام الذي لم يكن «يهوديا ولا نصرانيا» كما جاء في القرآن الكريم ، وكان ذلك ردا على حجاج ولجاج اليهود والنصارى مع انهم يرجعون ، هم ايضا ، بأصول دينهم الى ابراهيم خليل الله .

وواضح ان حنيفية ابراهيم كانت تقوم ، على رفض الوثنية وخاصةعبادة الكواكب التي تنتهي الى افول . وهذا معناه انه في عصر ابراهيم كانت الوثنية ، وعبادة الاجرام السماوية احد مظاهرها ، هي السائدة في (أور) بأرض كلدان .

وهكذا هاجر ابراهيم ، كما هاجر محمد من بعده ، عليهما الصلاة والسلام وكان بناء الكعبة ببكة (مكة) ، كما في القرآن الكريم ولا بد أن ذلك كان مبدأ التوحيد «الحنيفي» في جزيرة العرب .

على اننا لا نعرف مدى انتشار «ملة ابراهيم» بعد ذلك في شبه الجزيرة التي ظهر فيها أنبياء يدعون الى التوحيد كهود أخي عاد وصالح أخي ثمود ، عليهما السلام ، ويفترض ان تكون ثمود شمالية ، اما عاد فمختلف في موقع «أحقافها» وإن كنا نرجح أن تكون جنوبية .

. ٢ .

اسم الجلالة : الله

ولا شك أن اسم الجلالة «الله» كان معروفا بين العرب ، ولكننا لا نستطيع الجزمَ بأنه كان منتشرا في كل أنحاء شبه الجزيرة ، فهو على الأقل لم يدخل في أسماء الاعلام المركبة اليمنية قبل الإسلام ، كما نعرف من النقوش .التي لدينا منها اليوم عدد وفير ، رغم عدم التقصي في التنقيب عنها ، والتي يعود أقدمها إلى أكثر من ألف عام قبل الإسلام وفقاً لأكثر التقديرات تحفظاً .

هذا في حين أن لفظ «إل» الذي يبدو انه اسم مقدس في اللهجات او اللغات التي توصف بأنها سامية ومنها العربية ، يدخل في أسماء الاعلام المركبة في كل مكان في الجزيرة ، كما في شراحيل وشرحبيل ويتجلى كذلك في أسماء الملائكة، وفي اسم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

فهل تداخل اللفظان ـ الاسمان أو تعايشا منذ القدم في ظل عقيدة التوحيد ؟ أم هل اقتصر انتشار دين إبراهيم في القبائل التي

عرفت وحدها لفظ «الله» اسماً للاله الواحد قبل أن تحيط بذلك الدين «شوائب» .. العقائد الفاسدة الدخيلة التي جاءت في صحبة الأصنام ، التي يفترض أن فكرتها مستعارة أو منقولة من الخارج كما يقال في أمر هبل مثلاً في بعض الروايات بغض النظر عن تاريخ حدوث ذلك ؟ أم أن الامر كله كان نكسة قديمة ، وعودة إلى الوراء استمرت طويلاً ، وتذكرنا ، من بعض النواحي ، باتخاذ بني اسرائيل «العجل» بعد أن ظهر فيهم موسى عليه السلام .

إن نكسة كهذه ، اذا حدثت ، لا بد انها كانت قبل عصر الحضارات صاحبة النقوش المعروفة .

ولا نستطيع في ضوء ما بحوزتنا من وثائق تاريخية ، تتبع ما حدث في اليمن مثلاً منذ قيام البيت الحرام ببكة ، ولكنا نعرف ، من ناحية أخرى ، أن عبادة الاوثان ، وبعضها صريح الصلة بعبادة الكواكب كـ «عثتر» قديمة قدم النقوش المعروفة ، وهذا لا يمكن وصفه بأنه «قرون قليلة قبل الإسلام» .

وفي هذا الصدد لا يفوتنا ان نشير الى أن «عثتر» ، الاسم المذكر في اليمن ، هو نفس «اشتار او عشتار» ، الاسم المؤنث في الشمال ، اذ ان كليهما - كما يظهر - اسما علم للزهراء (النجم أو النجمة) وهذا الاختلاف ، وإن بدا شكلياً ، فأقل ما يقال فيه هو أنه مثير للتساؤل لما له من علاقة بالدور المنسوب الى الكوكب المذكور عند كل من الجانبين الشمالي والجنوبي

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإنه مع أن التوحيد هو دين الفطرة ـ دين آدم عليه السلام ، فإن الوثنية تظل تاريخيا أقدم من دعوة ابراهيم عليه السلام . ولهذا فان الحنيفية التي جاء بها ابراهيم ينبغي أن توضع في اطارها التاريخي واعتبارها حجرا ألقي في بحر الوثنية انداحت بوقعه موجات طاهرة بلغت أجزاء منها بلاد العرب التي اتخذت (اي الحنيفية ، مكة مركزاً لها فيها[1] .

وتحت مؤثرات عديدة تصعب الاحاطة بها طغت الوثنية من جديد في بلاد العرب كما كانت طاغية في غيرها من بلدان العالم القديم ، أما كم من الوقت دامت تلك الحالة ، قبل أن تتحقق العودة إلى الحنيفية دين الفطرة وملة إبراهيم ، أو بعبارة أخرى «الإسلام» ، فوقت هو في ظننا طويل ، وليس مجرد «قرون قليلة قبل الإسلام» .

مع ذلك فان شعلة «التوحيد» ظلت حية في ظلام عصور الوثنية التي تضرب بجذورها في عصور تعارف المؤرخون على تسميتها بما قبل التاريخ «المكتوب» ، فكانت اليهودية (الكتابية) ثم جاءت المسيحية التي ظهرت في وسط يهودي ، وكانت زمنيا اقرب دعوات التوحيد الكتابية الى الاسلام حتى أن المدة الفاصلة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام تعد «فترة» حسب الاصطلاح الديني ، بل هي «الفترة» الاخيرة إذ لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

وتعرض اليهود للصدام مع أعتى قوى الوثنية التي عاصروها في ظروف تبدو مختلفة عن الظروف التي تعرضت فيها المسيحية لاضطهاد القوى الوطنية المعاصرة لعهودها الاولى ، خاصة في المناطق التابعة للرومان أو المرتبطة بهم .

ان ما تعرض له اليهود في تاريخهم يدخل بعض منه ضمن الصراع العام الذي كان يدور بين القوى المختلفة في المنطقة التي تقع فيها فلسطين والذي بدأ قبل مجيء اليهود اليها . وهو تاريخ معروف ، داخله صراع بين اليهود أنفسهم . ولم تكنْ دولتهم ، موحدة أو ممزقة ، إلا حلقة في سلسلة طويلة ليست هي أولها ولا أكبرها وخلال ذلك لم يكن العرب بمنأى عن كل ما كان يدور من حولهم منذ عصور موغلة في القدم ، نقول ذلك على الرغم من كل ما يقال بشأن تقدير زمن استخدام الجمل وسيلة للنقل ، والانتقال ، فالدور العربي في التجارة الدولية كان بحكم موقع شبه الجزيرة أو شبه القارة العربية ، من الأدوار الرئيسية في ربط أجزاء حيوية من العالم بعضها ببعض كما كان مؤثراً على سير أحداث التاريخ القديم فلم يكن العرب حميراً (ولا جمالاً) تحمل أسفاراً ، كما قد يستشف من إطلاق البعض صفة «الوسيط التجاري» عليهم ، وإنما كانوا شركاء في بناء الثقافة الإنسانية وتطويرها .

الوثنية «ايديولوجية» واحدة !

ولم تكن الوثنية التي سيطرت على العالم القديم طيلة عصور التاريخ المكتوب ، رغم جهلنا المطبق ببدايات تشكلها ، الا «ايديولوجية» عامة مشتركة ، تولدت عن نظرة معينة الى الظواهر الطبيعية بكل اشكالها وغدت تعبر عن عقلية ذات مستوى ثقافي واحد أو متقارب في أساسياته .

وأبرز ما في الوثنية هو قيامها على فكرة تعدد الأرباب - أرباب متخصصون متساوون أحيانا في المكانة ، أو متدرجون وفق تسلسل معين ، يتحدث بلسانهم كهنة سحرة . ومن ثم كانت «المعجزة» قمة أساليب الاقناع في تلك العصور .

وقد كان من نتائج تلك العقلية تأليه بعض البشر ، وتأليه البشر هو قمة فساد العلاقات الاجتماعية واستغلال الإنسان للإنسان كما كان من نتائجها خضوع الوثني لآلهة المكان الذي ينتقل إليه لأي سبب من الأسباب ، إلى جانب خضوعه الدائم لمعبود قومه الخاص

ولا يستبعد ايضا ان يكون بعض اسماء المعبودات الوثنية التي تبدو مختلفة انما هي تحريفات لاسم واحد مشترك في الأصل . ومثل هذا اذا كان قد حدث فانما يؤكد فكرة التأثير المتبادل بين البيئات، المختلفة ، ويقوي فكرة العقلية الدينية الواحدة ، ويفسر احترام بعض الفاتحين لآلهة بعض البلاد التي يفتحونها ، وإن كان النقيض حَدَثَ أيضاً في بعض الأحيان مما يتطلب تعمقا في فهم تلك العقلية ، وهناك أمثلة واضحة في النقوش اليمنية الوثنية تمثل حدوث الحالتين في اليمن .

ولدينا أيضا نقوش يمنية وجدت خارج الجزيرة ، وأغلبها معينية ، تؤكد ـ على قلتها ـ فكرة التعايش الوثني . وما دمنا نتحدث عن الوثنية اليمنية فلابأس من الاشارة الى ما فعله السبئيون ، منذ القرن الخامس قبل الميلاد أو قبله ، حين حملوا معهم معبودهم «المقه» والخط المسند الى الهضبة الأرترية ، الامر الذي ترتب عليه فيما بعد تفاعلات ثقافية ، لعل بعضها ما زالت آثاره باقية رغم ما مر به سكان الجانبين من تقلبات .

وقد لوحظ من تتبع النقوش السبئية التي تعود الى فترة ما نسميه حرب الثلاثمائة عام في اليمن ، وهي القرون الثلاثة الاولى بعد ميلاد المسيح عليه السلام ان هناك تطورا ملحوظا في اللغة الدينية تشير الى تطور في الطقوس المتبعة ، قد ينم عن محاولة تكيف من قبل القائمين عليها مع ما يطرأ من تحولات على الاوضاع

والعلاقات في ذلك الجو العاصف . . والتكيف مع المتغيرات امر طبيعي حدث ويحدث باستمرار في بلاد اخرى وظروف أخرى وأزمة أخرى .

والقرون الثلاثة المذكورة هي أغنى فترات التاريخ اليمني - ومن ثم العربي القديم - توثيقا وقد جاءت بعد فترة ازدهار عظيم لتجارة القوافل البرية بين الشواطىء العربية الجنوبية وشواطىء البحر الابيض المتوسط اي الفترة التي اكسبت «العربية» صفة «السعيدة» في المصادر الاغريقية الكلاسيكية .

اليهودية والمسيحية في الجزيرة

وخلال فترة الثلاثمائة عام المذكورة كانت المسيحية تخوض معركتها الاساسية أو التأسيسية في الاراضي الخاضعة للرومان ، ومنها فلسطين مهدها . ولم يكن موقف أحبار اليهود منها ودياً ، اذا لم نقل انه عدائي ، وكانت المسيحية في أساسها دعوة اصلاحية ، هدفها تقويم ما اعوجَّ على أيدي الفريسيين ، وهو ما أدى الى تآمر الأحبار على صاحب الدعوة ، عليه السلام .

ولقد تعرض اليهود في تاريخهم ، بعد خروج موسى عليه السلام من مصر لتقلبات كثيرة ، ومر تاريخهم القصير ، بالمقارنة ، في فلسطين بمراحل مختلفة انقسموا على أنفسهم خلالها ، وتعرضوا

لضربات موجعة من القوى الكبرى في بعض المراحل ، بلغت حدَّ الأسر الجماعي الذي قيد فيه أحبارهم تاريخهم ، أو قل أخبارهم ، وضمنوه ماوعوه أو تصوروه من أخبار الأمم الأخرى من حولهم ، وجعلوه بعجره وبجره جزءاً من تراثهم الديني .

وليس في اتجاههم جنوبا نحو الحجاز في تيماء ، او فدك أو خيبر او حتى يثرب (المدينة المنورة فيما بعد) ما يستغرب ، وكانوا ، لاسباب مختلفة هي في الغالب من صنعهم أو تصورهم ، أميل الى الانعزال والانغلاق ، وكانت لهم نظرة خاصة نحو غيرهم من الامم وبهذا فان انتشار دعوتهم لم يكن في مستوى طول تاريخهم مقارنة بالمسيحية .

وعلى أن أحد انتصاراتهم التبشيرية الكبرى هو الذي تحقق في اليمن في القرن الخامس الميلادي بعد قيام حكم التبابعة الذين يقول الاخباريون إن اشهرهم وهو أبو كرب اسعد (أو أسعد الكامل) تهود على يد أحبار اليهود أثناء وجوده بالحجاز .

وكان الحميريون ، بعد توحيدهم النصف الغربي من اليمن (أراضي سبأ وحمير) اواخر القرن الثالث قد توجهوا الى ضم ما بقي ، وهو النصف الشرقي (أراضي مملكة حضرموت القديمة) في مطلع القرن الرابع على يد اول التبابعة شمر يهرعش .

وبذلك بدأ عصر التبابعة الذي دام قرنين ، وشهد انتشارا منتظما نحو الشمال ، حتى عم شبه الجزيرة كلها تقريبا أواخر القرن الرابع نفسه .

ومن هنا فان القرن الخامس يتمتع بأهمية خاصة في التاريخ العربي عامة ، فهو القرن الذي تحقق فيه قيام سلطة مركزية عربية واحدة (بمعايير وامكانات ذلك العصر) ، اذ كانت دولة كندة (الثانية تحت حكم أسرة حجر بن عمرو ، اكل المرار (من كندة الملوك) دولة حاجزة ، على تخوم امبراطوريتي فارس والروم ، وتشمل كل أراضي نزار ومعد ، فتحقق بذلك المزيد من الاختلاط والتقارب بين القبائل العربية .

ويبدو ان اليهودية أصبحت في تلك الفترة الدين شبه الرسمي لدولة التبابعة في المركز . وهو تحول يعنينا من مظاهره هنا عبارة «الرحمن رب السماء والأرض» التي وردت في نقش مؤرخ يعود الى عام ٥٩٦ في التقويم الحميري القديم ، أي ٤٨١ م تقريبا .

ولكن المسيحية في نشاطها التبشيري النشط الذي بدأ مبكرا وبلغ ذروته باعتناق قسطنطين لها في القرن الرابع الميلادي حاولت ، هي الأخرى ، ان تتوجه الى بلاد العرب فيما توجهت اليه من بلاد . فأما في الشمال فقد كان اكتساحها طبيعيا ، وامتدادا لما حدث في لقسطنطينية .

وأما في الجنوب (اليمن) فانها اقتصرت على جيوب ، خاصة نجران ، وبلاد الركب (من الاشاعر) على مقربة من ميناء المخا اليمني الشهير . وقد ساعد على ذلك انتصارها في الحبشة ، في البر المقابل عبر البحر الاحمر ، لما كان بين البرين من اتصال مستمر منذ القدم .

وفيما بين الشام (بمعنى الشمال اجمالا) واليمن (الجنوب اجمالا) انتشرت صوامع الرهبان المتنسكين او الفارين بدينهم من اضطهاد .

وفي الاثناء كان قد حدث الخلاف حول مسألتي اللاهوت والناسوت في طبيعة المسيح ، وكانا مذهبا النساطرة واليعاقبة . فخاض مسيحيو العرب ذلك الخلاف على أشده واصطلوا بناره .

ولكن ما جاءت نهاية القرن الخامس ، الا وقد اذنت شمس التبابعة بالغروب بفعل عوامل كثيرة ، لم نتبينها كلها ، ولكنا نعزو جانبا كبيرا منها الى تعاظم نفوذ الأذواء «اليزنيين - الجدنيين» وهم أصحاب «أذوائية» واحدة سيطرت على جانب كبير من النصف الشرقي كله من دولة التبابعة ، على أساس من التبعية ، وفقا لنظام القيالة الذي كان قائما في اليمن منذ أواخر العصر العتيق (أي قبل الميلاد) على الاقل والذي يتولى الحكم المحلي فيه أقيال وأذواء وقد أخذ صعود اليزنيين يظهر منذ النصف الاول من القرن الرابع ولكن تحولا حدث أواخر القرن الخامس أصبحت بمقتضاه نفس الاسرة ، أو أسرة أذوائية أخرى حلت محلها ، تحمل اللقب المركب وهو (أذواء

يزن وجدن) ورافق ذلك إكمال سيطرتهم على ذلك النصف الهام من البلاد بما فيه من موانىء بحرية .

وخوت ، على ما يبدو ، خزانة آخر التبابعة الحميريين المعروفين وهو معد يكرب يعفر ، ولعله وقع تحت تأثير المسيحيين في نجران على الأقل ، وترسخت للمسيحية قواعد في بلاد الركب ، وأدى كل ذلك على ما يظهر ، الى وجود ما للدعوة المسيحية في مراكز أخرى منها ظفار العاصمة التاريخية على أطراف الهضبة اليمنية الغربية (نجد اليمن) ، وجر معه نفوذا حبشيا من نوع ما نراه يتمثل في وجود جالية مسيحية منهم لها كنيسة في تلك الحاضرة . وهناك من الروايات ما يتحدث عن نفوذ حبشي سياسي في اليمن في تلك المرحلة .

كل هذا نقرؤه أو نستقرئه من نقوش عهد يوسف أسأر يثأر ، اليهودي عقيدة ، واليزني نسبا ـ في بعض الآراء والشهير بذي نواس ، ومستخلصة من المصادر المسيحية المعاصرة المناهضة له دفاعا عن نصارى نجران ، فقد ثار ذلك الملك على من سبقه ، كما تقول

مصادر الإخباريين ، وعلى المسيحيين كما تقول المصادر المسيحية ، وخاض حروبا واسعة ، كما تقول المصادر النقشية ، وأطلق عليه أنصاره ، بل وساعده الأيمن ، الأذواد اليزنيون ـ الجدنيون ، في نقوشهم ، لقب «ملك كل الشعوب» وفي ذلك ما يشير الى ازدياد

حدة التفكك ومحاولة خلق سلطة جديدة مركزية بديلة . وكان ذلك في مطلع القرن السادس ، الوقت الذي بلغ فيه الصراع الديني ذروته مرتبطا بصراع سياسي داخلي ذي أبعاد خارجية .

قرن التحولات والارهاصات

تصعب الإحاطة بكل ما يمثله القرن السابق على ظهور الاسلام في عجالة كهذه لكثرة ما في أحداثه من دروس وعظات . حقاً إن التاريخ لا يعيد نفسه لان الحياة لا تدور في حلقة مفرغة ، وإنما هي تمضي قدما نحو غاية ، وفقا لسنة لا تحيد عنها . وليس موت فرد أو جيل نهاية الحياة . كما أن ولادة فرد أو جيل ليست ببداية جديدة منبتة الصلة بما قد مات .. وإنما هو اخراج حي من ميت واخراج ميت من حي .

ان الماضي جزء لا يتجزأ من الحاضر ، وكان الماضي حاضرا وسيصير المستقبل حاضرا ومن خلال تلك الحركة يحدث التراكم الذي يؤدي الى التغيير ، وهي سمة التاريخ الاولى .. «وتلك الايام نداولها بين الناس» و«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

ولصعوبة الإحاطة هذه بما يمثله ذلك القرن سنعمد الى الاكتفاء بإبراز بعض النقاط ذات الدلالة على أهميته كقرن تحول عظيم في الحياة العربية ، بل وفي حياة العالم القديم بأجمعه ، ولما في ذلك التحول من إرهاصات .

• تفكك وصراع على السلطة •

في عام ٥٢٥ م تدخل الأحباش عسكريا في اليمن ، تماما كما فعلوا في القرن الثالث بفعل الخلافات الداخلية . وساعدوا قيلايزنيا ، أو ربما جدنيا او الاثنين معا هو سميفع اشوع على اعتلاء العرش . ولكن سميفع رغم اتخاذه لقب التبابعة كان صريح التبعية لنجاشي الحبشة ، الى جانب انه كان مسيحيا بخلا ف يوسف اسأر يثأر وانصاره اليزنيين ـ الجدنيين في بداية حركته . وأدى الخلاف الكامن بين الأقيال ـ الأذواء ونزعة التفكك والصراع المتقدم ذكرها الى الاطاحة بسميفع وتنصيب ابرهة (الاجنبي) ملكا يحمل لقب التبابعة يسانده عدد كبير من أقيال اليمن .

وفي عهد ابرهة استطاعت اليمن أن تستعيد ـ ولكن الى حين ـ زمام المبادرة في شبه الجزيرة ، كما يشهد بذلك نقش هام يصف إخماد ثورة بني عامر بن صعصعة من هوازن ، وإخضاع معد كلها من جديد . وقد سجل المخبل السعدي نتائج إخماد تلك الثورة في شعر له اشاد فيه بأبرهة أو «أبي يكسوم» . كما كان يكنى ، وكان بنو سعد قد وقفوا حينذاك الى جانب أبرهة ، وحدث ذلك قريبا من منتصف القرن ـ السادس ـ .

• الرحمن •

ولعله من المناسب هنا ان نذكر ان اسم «الرحمن» الذي عرفه اليهود حتى أيام يوسف اسأر يثأر احتفظ به المسيحيون، أيام أبرهة ،

كما في أيام سميفع ، وجعلوه في مقدمة الثالوث المقدس عندهم .

ولاسم الرحمن ، كما نعرف ، مكانة خاصة بين الأسماء الحسنى لله جلَّ وعلا ، وهو يعد الاسم الذي أنكره مشركو قريش بالذات كما حدث عند كتابة عقد صلح الحديبية ، بل وقبل ذلك في مكة كما في بعض الروايات .

● القصيدة ●

وفي القرن السادس بلغت حركة الشعر العربي مرحلة النضج ، متبلورة في «القصيدة» التي تحكم صياغتها قيود فنية متعارف عليها والتي تمثل شكل الأداء الفني في قمة النهضة الأدبية العربية الاولى التي نعرفها .

والى ذلك القرن يعود كل فحول الشعراء ، حتى من امتد به العمر منهم الى ما وراء ذلك ، وحتى وإن كانت البدايات تعود الى أوا خر عهد التبابعة الحميريين غالبا ، فهذا هو امرؤ القيس يذكر بكاء ابن حذام على الطلل القديم ، بما يوحي بأنه إن لم يكن أول البكائين - وهو المحتمل - فهو أجود من عبر عن ذلك التقليد الشعري الذي أصبح لأمد طويل جزءا أساسيا في تركيب «القصيدة» بعد ان كان في البداية هو الشرط أو الملمح الرئيسي فيها ، وقبل أن تزاحمه أو تحل محله ، بمرور الوقت ، مواضيع أخرى كمطالع بديلة أ و كقيود شكلية اضافية .

ولقد أصاب الجاحظ حين قال بأن الشعر صغير السن ، ولم يذهب في تقدير بدايته ، مستظهرا غاية الاستظهار ، الى أبعد من مائة وخمسين عاما قبل الاسلام ، وكأننا بأبي عمرو إنما أراد بمقولته تلك الشعر كما عرفناه في شكله المعهود ، القصيدة ، فالشعر ، على إطلاقه من حيث هو تعبير فني أقدم من ذلك ، عرفه الناس من عرب وغير عرب في لغاتهم ولهجاتهم ، وارتبط عند الانسان بنزعة الغناء . وهو في غير شعر الملاحم ، أو الشعر ذي المنحى الملحمي ، مقطوعات صغيرة تصدر عن عاطفة محددة .

اما «القصيدة» فهي الشكل الذي ولَّده الشعراء العرب في نحو نهاية القرن الخامس ، ودولة التبابعة على وشك الانهيار الذي جر في اثره -سقوط حكم كندة الملوك في معد .

بهذا التفسير يسهل فهم الكثير من الاخبار الغامضة ، المتصلة بأقدم الشعراء ، من ابن حزام الذي ابتدع - كما قلنا - البكاء على الاطلال ، الى المهلهل الذي يقال انه هلهل الشعر ، أو القصيدة (ربما بمعنى الاطالة) ، أو امرؤ القيس صاحب أقدم المعلقات الذي ينسب اليه قدماء النقاد «أوليات» كثيرة ، الخ . .

● مغلغله ●

ومع ذلك فإنه لجهد عقيم ، في ضوء ما نملكه من وثائق ، ان نحاول تعقب نشوء الشعر عند العرب وهذا على الرغم من ان

لدينا من النقوش اليمنية المعروفة ما يدل على قدم نسبي للشعر في شبه الجزيرة ، ولقد كان قديما بالضرورة ، اسوة بما حدث في الأمم الأخرى كما تقدم ، وكان في نشأته شعر لهجات .

ولكن اختلاط القبائل «من جنوب وشمال» في الجيش البدوي الحميري في ظل التبابعة ، ثم حكم «كندة الملوك» في معد ـ كل ذلك كان من عوامل ازدياد تقارب اللهجات . وكان التقارب قائما من قبل بنسب مختلفة بحكم الاتصال المستمر عبر التاريخ لاعتبارات عدة .

وحين تسارعت حركة الشعر ليصبح نهضة عربية أدبية عامة فقد شاركت في تلك الحركة قبائل عديدة . وللنقاد القدامى آراء قد تختلف ، أو تبدو مختلفة ، ولكنها تتفق في حالة كونها مؤشرا قويا على حقيقة انتشار تلك الحركة ، وهو ما يعنينا هنا .

وساعدت عوامل عديدة على الاهتمام بالشعر واتساع نطاقه ، ذلك الاهتمام ، منها ما صاحب الصراع القبلي في لحظات اشتداده ، وهو صراع يرجع اليه ما يروى عن احتفال القبيلة إذا نبغ فيها شاعر ، لأنها بذلك تمتلك لسانا قويا يعبر عنها هجوماً ودفاعاً ، هجاء وفخراً ، فمن هناك جاء الحرص على اذاعة القصيدة بكل الوسائل المتاحة حتى انها كانت لتروى عند مواضع المياه حيث يجتمع الرجال والنساء . وسميت لتغلغلها في طول البلاد وعرضها

«مغلغلة» وهو الاسم الذي يتكرر وروده في شعر الهجاء «السياسي !» وزاد بذلك جمهور المهتمين بالشعر الجديد ، وأدّى الاهتمام الى «الموازنة» بين الشعراء ، ر: قبل أن يقوم جو المباراة الرسمية في الأسواق والمحافل العامة .

وترتب على ذلك تدريجيا تبلو ر تلك اللغة الأدبية الراقية التي نسميها الفصحى ، بغض النظر عن مقدار اسهام اية قبيلة أو مجموعة قبائل في العملية .

ومن بين الجوانب التي يتجلى فيها ذلك الاسهام المشترك ان الشاعر من قبيلة ما قد يلجأ - عند الحاجة أو بالسليقة - الى لفظ من لهجته ، مما عقد صورة ما يعد في المعاجم من المترادفات !

وبهذه اللغة الأدبية المشتركة نطق بعض «الحنفاء» بأبيات شعرية في مواعظهم . وبتلك اللغة الأدبية نفسها عبر الصعاليك في مقطوعاتهم الشعرية عن مشاعرهم وأفكارهم .

وعلى الرغم من أن «القصيدة» كانت المعيار الذي يقاس به مقدرات الشعراء التعبيرية ، ويفاضل بها بينهم ، فان الشعر الجاهلي ، حتى بعد تبلور القصيدة !، لم يكن كله قصائد بهذا المعنى الاصطلاحي ، الذي طغى على الشعر كله ، حتى ما لم يكن منه كذلك . بل كان من شعراء القصائد من لجأ الى «المقطوعة» .

وعبر فحولهم عن الضيق بقيود القصيدة في بعض الأحوال ، بل ولجؤوا الى صوغ المقطوعات في بعض المواقف .

وفي تقديرنا أن ما أضيف الى القصيدة من قيود مع الزمن كان في بدايته مواضيع صادرة عن سليقة معبرة عن تجربة صادقة ، ثم أصبحت تحت تأثير جو المنافسة تقليداً !

وأعجب ما في «القصيدة» الجاهلية ، بما حملته من قيود ، هو انها لم تكن على أيدي الفحول مقطوعات يربطها ببعض خيط من افتعال يضعف نسيجها ، وانما استطاع أولئك الفحول ان يتجاوزوا تلك العقبات الشكلية ، بل وأن يخضعوها للتعبير عن أحاسيسهم الصادقة ، كما يتجلى ذلك من الجو الذي ينتظم القصيدة من قصائدهم كلها من حزن أو ابتهاج أو غضب ، أو غير ذلك من المشاعر الطبيعية .

حتى احتفاء الحكام العرب بالشعراء ، ليس في دول التخوم الشمالية وحدها وإنما في اليمن أيضا ، طلبا لذيوع الصيت والسمعة الحسنة من جانبهم ، وسعيا وراء العطاء من جانب مادحيهم ، لم يكن ، رغم المآخذ الاخلاقية المعروفة على ذلك العمل ، الا جزءا من تاريخ تطور «القصيدة» له جوانبه الايجابية فنيا .

وقد تطور الشعر قصيدة أو مقطوعة ، في أساليب تعبيره ومضامينه ، بما يساير التطورات الاقتصادية والسياسية ، بل والدينية ، في شبه الجزيرة ، وقامت فيه مدارس متعاقبة تعكس تغير الاجواء والافكار المنبثقة منها .

وصدق من سمى الشعر الجاهلي «ديوان العرب» فهو ، أو ما وصل الينا منه ، ما زال في مقدمة الوثائـق المعول عليها عن حياة العرب في عصره . ولكن كما ان الشعر في أحد جوانبه وثيقة تاريخية فانه لا غنى لفهمه ، ككل شيء اخر يتخلف عن عصر سابق ، من الاستعانة بالمعارف التاريخية في المصادر المعاصرة الأخرى بما فيها في هذه الحالة ، النقوش ، فلا شيء يأتي من فراغ ودون ان يحده إطار . وإطار كل ما هو جاهلي هو كل ما تخلف عن ذلك العصر من معارف ، بعضه حفظه لنا الاسلاف فيما دونوه بأساليبهم ويبقى علينا أن نحسن تحقيقه وتكثيفه ، وبعضه آثار بارزة أو مدفونة تحت الرمال ، وما يسند تلك المعارف من دراسة منهجية واسعة عميقة للارض التي قام عليها التراث . فتلك هي مكونات التاريخ - الاطار .

● رحلة الشتاء والصيف ●

لم يكد القرن السادس يشرف على نهايته حتى سقط حكم أسرة أبرهة ، وعاد اليزنيون مرة ثانية الى العرش ، ولكن لفترة

عابرة ، تفككت بعدها اليمن الى «اذوائيات» هي التي تخلفت عنها ذكرى من يسمون «المثامنة» عند الاخباريين .

وخلال ما تقدم كله وبسبب منه اكتسبت مكة «المكرمة» بالتدريج أهميتها الاقتصادية ، إلى أن انتقل اليها نهائيا مركز ثقل حركة التجارة العربية التقليدية .

وقد أخذ صعود مكة الاقتصادي في الرسوخ منذ أيام هاشم بن عبد مناف ، جد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهو الذي أقام «الإيلاف» ، وهي أحلاف مهمتها ضمان سير القوافل التجارية في منطقة هامة ، في ظل نظام هو خليط من نظام الخفارة والمشاركة في التجارة .

والخفارة في ذاتها نظام تعاقدي عريق توجد أقدم إشارة معروفة إليه في نقش سبئي معين من القرن الثالث الميلادي ولكن لا بد أن يكون ذلك النظام قديما قدم حركة القوافل مخترقة اراضي قبائل عديدة . وقد يكون التعاقد على الخفارة بين طرفين غير متكافئين أكثر تماشيا مع مصالح الجانب الأقوى كما كان الحال بين سبأ وكندة في النقش المشار اليه ، ونتوقع أن يكون عنصر التحالف الأقرب الى التكافؤ ، هو الغالب على نظام الخفارة في المراحل الأخيرة كما نلمس من الشعر الجاهلي .

ويحدثنا الاخباريون عن الخفارة في كل سوق من الأسواق التي كانت قائمة قريبا من ظهور الاسلام ، وهي أسواق بعضها فيما نظن حديث عهد ، أو محلي ، (ربما ارتبط بقيام الايلاف وغيره من الاحلاف المتأخرة) والبعض الآخر قديم متصل بطريق البخور الرئيسي القديم .

وإذا عدنا الى تاريخ مكة القديم فإنا نجد أننا لا نعرف الكثير عن تطور الاوضاع فيها قبل القرون القليلة السابقة للإسلام . وكل شيء يشير الى انها كانت محطة تجارية على الطريق التهامي للقوافل ، وهو الطريق الغربي المساير لساحل البحر الأحمر . وليس هناك ما يؤكد أو ينفي تعريج قوافل الطريق الأوسط ، المار بشرقي السراة عليها ، على أن كنانة التي تنسب اليها قريش كانت بين الأسماء التي عرفت في النقوش ، وكانت في أنحاء تهامة على ما يبدو ، والمعلوم ان سكان تهامة ومنحدرات السراة الغربية كانوا ، بحكم تضاريس بيئتهم ، أميل إلى التشرذم في صورة عشائر ، وانهم ، أو بعضهم ، كان منذ فترة حرب الثلاثمائة عام ، والى ما بعد ذلك قليلاً ، مصدر قلاقل للسبئيين فالحميريين ، ولكن هذا أصبح تاريخا قديما بعد صعود مكة النهائي .

اشتدي أزمة تنفرجي

لربما ازداد ما يسميه البعض «روح القبيلة» حدة في غياب دولة قوية مهيمنة ، كدولة التبابعة ، وازدادت تبعا لذلك ما تسمى

«أيام العرب» ضراوة ، واستعصى بعضها على الحل حتى تفانت بعض الأطراف المتحاربة .

ولكن لا شيء في التاريخ العربي على سعته وطوله يمكن تفسيره على أساس ما يسمى «روح القبيلة» ، إذا كان المقصود «بالقبيلة» البداوة ، فلم تكن البداوة إلا نمط حياة من بين انماط عديدة أفرزت كلا منها بيئة معينة . فعلى «طريق البخور» ، ذلك الشريان الكبير من شرايين التجارة الدولية العربية ، كانت تنتشر «قرى ظاهرة» ، أهلها حضر ، تحيط بهم بادية ترتبط مصالحهم بهم كما ترتبط مصالح الأرياف بالمدن في كل زمان ومكان .

ولم يكن معظم أهل البادية ممن ينطبق عليهم وصف «الاعراب» وهي اللفظة العربية الوحيدة الدالة على ما يمكن تسميته بـ «البداوة الكاملة» .

وكانت هناك أيضا بداوة موسمية تجمع بين الاستقرار والارتحال حسب تقلبات المناخ ، ومن بين أمثال هؤلاء ، من كان ، اذا لم يجد متسعاً للرزق في خدمة القوافل بشكل من الاشكال أو مورداً آخر للعيش يلجأ الى «التصعلك» وقطع الطرق ، فالصعلكة في الأصل كلمة دالة على الفقر ، وقديما قال بيلني (ت عام ٧٢م) : إن العرب كانوا ، أيام الغزوة الرومانية الفاشلة (عام ٢٤ ق .م) ينقسمون الى قسمين : تجار وقطاع طرق (صعاليك !) .

اما اعتبار «البداوة أساسا لنظام اقتصادي توزع فيه الثروة على أساس مستمد من الاسلاب والغنائم ..» فيحتاج الى اعادة نظر : ذلك لأن الغارات المتبادلة ، لنفس الاغراض المذكورة ، أو الحصول اضافة الى ذلك على الاسرى للاقتداء والسبي وللاسترقاق ، لم يكن قاصرا على البدو ، وليس هو من اثار ما يسمى «روح القبيلة» العربية ، بل هو امر عرفته الامم القديمة كلها ، حتى وهي في قمة ما يعد ازدهارا حضارياً .

ومن حرب الثلاثمائة عام باليمن تخلفت ثروة هائلة من النقوش تصور المعاناة التي تعرض لها العُزَّلُ والنساء والأطفال والعجزة من تشريد واستعباد ، بل وقتل وأسرٍ وتهجير جماعي ، الى جانب فقدهم الكثير من مقتنياتهم المنقولة ، وتدمير ، بل وإحراق ، منازلهم وما يشبهها من ممتلكات ثابتة الخ .

● الانفراج ●

على أي حال فان المسيحية واليهودية ثبتا في مواقعهما بل لعل المسيحية حققت ، لبعض الوقت ، انتشارا بعد يوسف اسأر يثأر (المعروف بذي نواس) . وتمجس البعض من العرب أو تزندق متأثرا بالفرس الذين غزوا العرب في عقر دارهم في بعض أقاليم الجزيرة ، ولكن الوثنية ظلت باقية .

وكانت مكة حين ولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، قبلة الوثنية كما كانت قلب الحركة التجارية العربية .

ولكن امتدادات الديانتين السماويتين في القرون الأخيرة في قلب الجزيرة نفسها ، بل وفي أقاصيها الجنوبية ، وكثرة ما تقاور الأطراف من مذاهب ،منها المزدكية ، خلقت جوا فكريا متأزما تغلب عليه البلبلة ، وقد جبه الصراع بين أصحاب المذاهب المختلفة ، والجدل العقيم بين المذاهب المسيحية وتناحرها مفكرو العرب وهم يعيشون مرحلة يقظة فكرية ، كان الشعر الجاهلي لسانها فكان البحث عن طريق للخروج من الأزمة .

لقد آدرك كثيرون ان الوثنية وما تمثله في حياة الانسان وعلاقته بما حوله ومن حوله قد افلست منذ حين ، وإن لم تشهر افلاسها ، وغدا نسيجها «سحقا» لا يقبل المزيد من الترقيع .

وفي ظننا أن الشعر الجاهلي بالرغم من كل ما قيل عن عدم تمثيله للوضع الديني في عصره ، قد عكس تماما أزمة العصر بكل جوانبها ، بل وتابع تطورها في رحلتها الطبيعية نحو الانفراج .

وتظل خاصية تاريخ العرب القديم متمثلة في دوره العبقري الذي تكون من عناصر تجمع بين الاتصال والانعزال ـ الاتصال بما يدور حولهم ـ من البحر (سفنا :) ومن البر (جمالا) والانعزال عن التأثيرات الطاغية لاطماع الطامعين الخارجيين منذ قبل أكبر قدماء الفاتحين كالاسكندر بعجز الاجنبي عن اختراق البلاد وإخضاعها ، كما يشهد بذلك فشل الحملة الرومانية (٢٤ ق.م) .

وكل ذلك كان من أسباب تهيئة «العربية» أرضا وشعبا للدور الكبير .

ولم يكن صدفة ، الا بمقدار ما يحكم الصدف من قوانين ، أن أدّى حكم التتابعة الى نهضة /الشعر الجاهلي التي منحت العرب لسانا «مبينا» - لغة مشتركة اسمها «اللسان العربي» - هو الذي ساعدهم على التعامل العقلاني مع أزمة العصر بكل جوانبها والتحاور حولها .

وهكذا ظهرت في ذلك الجو ، أو عادت الى الظهور ، حركة الحنفاء ، قليلة العدد ولكن قوية الحجة ، بحثا عن مخرج من تلك المتاهة . . كانت إرهاصاً سبق الحدث العظيم والفتح المبين .

الفهرس

هذا الكتاب

- هل هناك أساس حقيقي لتقسيم العرب الى شماليين وجنوبيين ؟
- هل كان لفظ «يمنة» اسماً لمكان . . . أم اسماً لجماعة من الناس ؟ .
- أين كانت تقع مملكة «نزار» ؟
- من هم المثامنة ؟
- ما هي العناصر التي يتكون منها اللقب الملكي الحميري «لقب التبابعة» ؟
- ما هو الإطار التاريخي لظهور حركة الحنفاء العرب قبل الاسلام .